
الغولة
منال عبد الحميد

سلسلة الملاعين

(٢)

الغُـولـة

(مشاهد من حياة قاتلة أطفال)

منال عبدالحميد

الكتـــــــاب: الملاعين: جزار لندن

المــؤلــــــف: منال عبدالحميد

تصميم الغـــلاف: إسلام مجاهد

المراجعة اللغوية: مؤسسة إبداع للترجمة والنشر والتوزيع

رقـــم الإيـــداع: 2016 / 15272

الترقيـم الدولـي: 8 - 116 - 779 - 977 - 978

الإخـراج الفنـــي: مؤسسة إبداع للترجمة والنشر والتوزيع

المدير العام: عيد إبراهيم عبدالله



العنوان: 40 ش محمد فريد، وسط البلد القاهرة.

هاتف: 0227931911 - **موبايل:** 01001631173

الموقع الإلكتروني: www.prints.ibda3-tp.com

البريد الإلكتروني: info@ibda3-tp.com

الغُولة

منال عبدالحميد



الإهداء

إلى الأطفال الذين أُزهِقت أرواحهم بأيدي الأم، أو زوجة الأب، أو الخالة، أو الحاضنة، أو أقرب النسوة إليهم..

إلى ضحايا لعنة مونشاوزن المرعبة..

إنهن أمهات مريضات.. يُجِدْن المكر وسفح الدموع..

إنهن مريضات مُدَانات مُستحقات لكل لعنة..

لكن أنتم ببراءتكم وطُهْركم ترسمون كل يوم ملامح زهرة.. وتقطرون من بسماتكم ترياقًا شافيًا للروح والعقل!

(١)

تصاعد بكاء الأطفال مرة أخري فأحست "جين" أنها ستصاب بالجنون..
كانت "سيلستين" الصغيرة نائمة بهدوء في مهدها القذر، تحيط بها خرق بعضها ملوث بفضلات البنت، أو ببقايا أطعمة جافة سقطت على قطع الأقمشة المتهرئة، التي تتناثر هنا وهناك في أنحاء الكوخ.. والتي لم تجد الأم غيرها لتعد بها مهدًا وفراشًا لطفلتها الصغيرة التي لم يتجاوز عمرها الثلاثة أشهر.. لم يكن بالكوخ الذي يُؤوي الأم مع أطفالها شيء نظيفٌ أو مغسول على الإطلاق!

ليس حالاً شاذًّا لأسرة مؤلفة من ثلاثة أطفال يعيشون في كنف أبٍ عاطلٍ لا يعمل، ويعيش على ما تتكسبه زوجته، الأم، من غسل ثياب الجيران أو رعاية صغارهم في أيام العطلات أحيانًا.. وكلاهما، الأب والأم، سكِّيران

إلى حد الموت!

لم تكن "جين" مدمنة خمر منذ حداثتها.. لكن حياتها مع "دونات" كانت جد فظيعة ومرعبة وغير محتملة إلى حد أنه لم يكن بوسعها أن تفعل حيالها شيئا، أو تستطيع تحسينها بأية صورة من الصور.. نسيان الأمر تماما هو الحل الوحيد المُجْدي!

*****

كانت الحياة قد وصلت بالزوجين إلى المنعطف الأكثر خطورة في حياة كل فردين يتشاركا معا عيشة واحدة، وبيت واحد ووثيقة زواج واحدة.. إنها اللحظة التي يتحتم فيها أن يتغير كل شيء من تلقاء نفسه، أو يغير كل شخص ما لا يروقه بيديه.. ولمَّا لم تكن "جين" تؤمن بالمعجزات، أو تعتقد أن واحدة في الطريق إليها لتغير لها حياتها، وتصنع من أيامها المريرة عسلا حلوا صافيا، فقد جلست تحتسي الخمر برفقة زوجها حتى تدور رأسها وتجد الشجاعة اللازمة لتقوم بما انتوت أن تقوم به.. سوف تتشاجر مع "دونات" بقوة وتلقنه درسا قاسيا يجبره أن يخرج للبحث عن

عمل، لإعالة كومة الأطفال الذين ابتُلِيَا بها..

شربت "جين" بضعة كؤوس من خمرها المنزلي الرديء الصنع، الذي كانت تحضره من عناقيد العنب المسروقة من المزارع المجاورة، وتتركها تختمر بعناقيدها الخضراء مما يعطي نبيذها البيتي طعمًا قابضًا شديد السوء، لكن أحدًا من الشاربين، جين وزوجها، لم يكن يهتم.. فلم يعد لدى أي منهما حاسة تذوق سليمة بما يكفي لكي تميز نكهة ما يشربانه أو يأكلانه.. الوصول إلى نشوة الثمل هي الشيء الوحيد الذي يهمهما!

لكن "جين" حاولت ضبط نفسها، واحتسَت بضعة كؤوس قبل أن تضع كأسها الفارغة على المنضدة بينها وبين "دونات"، وتتجهم ملامحها وهي تقول بصوت هادئ لم يفقده السكر كل حذره:

- " "دونات".. ليس لدى الأطفال طعام.. والبنت بحاجة إلى قليل من الحليب!"

شرب الزوج ما تبقى في كأسه ومد يده إلى وعاء (النبيذ) الخاص، الذي صنعته زوجته من وعاء زهور زجاجي مسروق من بيوت إحدى العائلات التي كانت ترعى وتجالس أطفالهم، ليسّكب لنفسه المزيد.. لكن يد

"جين" أوقفته:

- "دونات.. أتسمعني؟! ليس لدينا طعام والبنت بحاجة إلى حليب! "

أزاح الزوج يد "جين" وتناول الزجاجة وشرع يصبّ لنفسه كأسًا وهو يقول:

- "ولماذا لا تسقينها من ثدييك.. أليس لديك واحدًا لا زال يعمل!"

مد الزوج يده باتجاه زوجته لكنها أبعدتها بقسوة:

- "ألا تسمع ما أقول.. ليس لدينا طعام أو حليب للرضيعة ولا نقود.. ليس لدينا ما نأكله صباح الغد!"

صاح الزوج وهو يمسح ما تساقط على ذقنه من قطرات النبيذ بظاهر يده، ثم يرشفها متلذذًا:

- "إنها ثمينة ولا ينبغي تضييع شيء منها.."

راقبته "جين" صامتة مُقْتضبة الوجه، فابتسم ابتسامة أظهرت أسنانه المتعفنة، وقال متظاهرًا بالظُّرف:

- "أفرطي لهم بعض عناقيد العنب التي سرقناها اليوم.."

كاد يكمل لكن "جين" قاطعته محتقرة؛ بصوت منخفض هادئ:

- "لقد جففناها من أجل صنع النبيذ.. إنها معلقة خارج البيت.. ثم إنني أتحدث عن طعام حقيقي وليس بضع حبات من العنب المجفف"

صمتت بدورها منتظرة تعليقه؛ لكنه لم يجُد بأي تعليق، فوجدت نفسها تمتلئ بالغضب وهي تصيح فيه:

- "أنت أيها الرجل الخامل.. ألست رجل ذلك البيت.. اذهب وأحضر قليلاً من الطعام لأطفالك وشيئًا من الحليب لابنتك التي كادت تموت جوعا!"

وكأن الفتاة الصغيرة أدركت، رغم صغر سنها، أن الحديث قد انحرف نحوها، فراحت تهدر صارخة على الفور، بينما رفع "دونات" صوته ليُسمع من في المنزل البائس رغم ارتفاع صوت صرخات رضيعته:

- "قلت لك قدمي لها حليب ثدييك.. ألم تَلِديها يا امرأة ويمكنك أن ترضعيها مثلما ترضع أي عنزة صغارها؟!"

نهضت "جين" وتوجهت ببطء نحو الموقع الذي ترقد فيه "سيلستين" في مهدها، وتناولتها بلا لهفة وحملتها بين ذراعيها، دون أن تحاول حتى هدهدتها، ثم قالت وهي تزيح يدي الطفلة بعيدًا عن أسفل وجهها:

- "وماذا عن الولدين هل سأرضعهما.. ثم إن حليبي قد جفّ منذ أسابيع وأنت تعرف.. إنني لا أتناول ما يكفي لإدرار اللبن.. وأنت ألا تحتاج لبعض الخبز والطعام؟!"

جرع الزوج جرعة سخيَّة من كأسه، ولم يُجب متظاهرا بأنه لم يسمع شيئًا من الأساس، فوضعت "جين" الطفلة التي لا تزال تصرخ بين قطع القماش القذرة، ولم تهتم حتى بإحكام وضعها فبقي نصفها متدلٍّ خارج قفص الخوص، الذي تستخدمه كحقيبة لحمل صغيرتها الباكية الجائعة وهي ترفس بقدميها بشدة ونزق.. اتجهت الأم نحو زوجها ووقفت قبالته وحادثته بعصبية متزايدة قائلة:

- "دونات.. إن لدينا ثلاثة أطفال.. لديك ثلاثة أطفال وبيت وزوجة.. لا يمكننا الاستمرار بتلك الطريقة.. يجب أن تحصل على عمل، على طعام.. لا يمكنك أن تبقى هكذا مستسلما للبطالة والتعطل.. أتسمعني.. هذا الوضع لا يمكن أن يستمر!"

رفع الزوج عينان هادئتان مثيرتان للغيظ نحو زوجته، وهو لا يزال جالسا مُمسكا بكأسه وقال بهدوء وبرود كاملين:

- "لقد واصلنا على هذا الوضع لسنوات.. وبوسعنا أن نستمر لسنوات أخرى!"

أبعدت "جين" عينيها عنه للحظة، وتنهدت بحرقة محاولة ضبط مشاعرها، والسيطرة على انفعالاتها، لئلا تصيح بوجهه حتى تسقط الجدران الواهية على رأسه ورأسها ورؤوس الأطفال.. عادت تنظر إليه وهي تقول مستعطفة:

- "لقد تغير الحال.. لدينا الآن ثلاثة أطفال.. وأنا لم أعد أكسب ما يكفي لكي أنفق عليك وعلى الأطفال.. لم يعد أحد يطلب مني أن أغسل ثياب أسرته أو أُجَالس أطفاله.."

قاطعها الزوج وهو يمد أصابع غليظة قذرة ملوثة بما يشبه الشحم، ويكاد يطبق على رقبتها الممدودة بالقرب منه، لولا أنها أشاحت بوجهها بعيدًا عنه في اللحظة المناسبة وقال بغيظ شديد:

- "لديَّ عينان في رأسي.. هل تسمعينني؟ إنني أعرف كل شيء يجري حولي.. لديَّ عينان في رأسي يا امرأة وأرى بهما كل شيء.. ولقد رأيت السيدة "برنادوت" وهي تناولك بضعة فرنكات بالأمس.. صرَّة كبيرة

من الفرنكات.. يمكنني رؤية كل شيء.. لقد غسلت ثياب أولادها ونقدتك أجرك.. أعرف ذلك ورأيته بهاتين العينين!"

تعالي صراخ الطفلة للمرة الثانية، فالتفت نحوها أمها وتطلعت إلى مهدها بعينين باردتين قاسيتين.. ثم تحولت لتنظر إلى زوجها وقالت بحدة وغضب:

- "إنها مجرد بضعة فرنكات وقد أُنفِقت كلها في البيت قبل حلول هذا الصباح.. من أين تظن نفسك قد حصلت على حساء الشوفان بالأمس، وقطعتين من الخبز للصغار.. أتعتقد أن النقود تبيض؟ يجب علينا الحصول بشكل مستمر على المال إذا كنا سنقيم ما يسميه الناس بيتًا وعائلة.. لن تتركني أعُولُكم وحدي.. يجب أن تبحث عن عمل!"

تناول الزوج كأسه الفارغ وهزَّه علَّه يعثر فيه على قليل من النبيذ في الثمالة، ثم رشف بضع قطرات عثر عليها فعلا ومسح ذقنه، وقال ببرود وكأن زوجته تتحدث عن عائلة أخرى تقع خارج باب منزلهم الحقير وليس عن أسرته هو الخاصة:

- "ليس هناك عمل.. يجب أن تفهمي هذا.. الشتاء قارس والأرض لا

يوجد فيها زرع.. والمراكب توقفت عن الصيد.. المولين ومالكي القوارب يأخذون كل شيء من صغار الصيادين لذلك فإن عملهم بلا جدوى.. المراكب مربوطة إلى الشاطئ، ولا يوجد مركب واحد يخوض المياه الآن.. إنه كَسَادٌ كامل وليس هناك عمل.. يجب عليك ذات يوم أن تفهمي هذا!"

أربدَّ وجه "جين" وقالت وقد بدأ غيظها يفور وينثر الشرر خارج قبضتيها رغم إرادتها:

- "الجميع يحصلون على عمل بطريقة ما.. لكنك تفضل أن تبقى عاطلاً، وأن تنتظر ما أكسبه أنا لتنفقه على طعامك، أو تقضي وقتك في سرقة العنب من مخازن الفلاحين البعيدة لتصنع منها خمرًا بدلا من أن تطلب منهم أن يعطوك عملاً.. إنك عاطل وسوف تبقى عاطلاً هكذا إلى الأبد.. لكن لا يمكننا أنا والأطفال أن نبقى على حافة المجاعة إلى الأبد.. يجب أن تجد حلاً.."

كان لدى "جين" المزيد لتقوله لكن زوجها لم يُمهلها تفعل.. فنهض فجأة من فوق مقعده راكلا بقدمه في جنون، ومد يديه وتناول زوجته من شعرها، وأخذ يضربها بقسوة بينما هي تحاول أن تزوده عن نفسها بأية

طريقة.. في نفس الوقت الذي انطلق فيه الأطفال الثلاثة يصرخون معا في جوقة واحدة مرعبة..

راح "دونات" يضرب "جين".. أوسعها صفعًا وركلاً مستخدمًا يديه القويتين، وذراعيه اللتين كذراعي إنسان الغاب، بينما لم يكن لديها هي من سلاح تدافع به عن نفسها سوى أظافرها المقصوفة وركلات قدميها الطائشة التي تحاول توجيهها إلى أعلي ساقيه وبطنه، علها توجعه وتؤثر فيه بما يكفي لكي يتركها ويطلق سراحها.. إلا إن كل ركلات "جين" خابت وفشلت في الدفاع عن نفسها، أو تخليصها من بين يدي زوجها.. فنالت علقة ساخنة بحق استغرقت دقائق حتى بدأ "دونات" يهدأ من تلقاء نفسه..

وجد أنه ضربها بما يكفي فأخذت قوة ضرباته وإحكامها يقل، وبدأت مرحلة الضربات الطائشة العشوائية التي راحت "جين" تتملص منها بسهولة.. ثم دفعها بقسوة فتهاوت ثائرة الشعر محتقنة الوجه على المقعد الآخر الذي لم يتحمل ثقلها فتهاوى بها، لتسقط على أرض الكوخ وترتطم بها بقوة وتتعالى تأوهاتها المتألمة الحارقة..

أخذ الضارب يتطلع إلى ضحيته لثوان والغضب يفور في داخل نفسه وينبثق من عينيه.. ثم بصق نحوها قبل أن يستدير مغادرًا المكان والبيت كله وهو ينفث حممًا كبركان خمد، بعد أن أطلق ثورته الكبرى وغطى الكون بسحابات غضبه.. أخطأت البصقة وجه "جين"، الممددة على الأرض، لتقسط على بعد خطوة منها.. وبعد أن انتهى الموقف كله لم يعد باقيا سوى الأم ملقاة على الأرض تتطلع بدهشة وغباء إلى بصاق زوجها الذي يرصع الأرضية المتربة بجوارها.. وثلاثة أطفال تعبوا من الصراخ، وبُحَّت حناجرهم رُعْبا فتحولوا إلى الأنين بأصوات خافتة مرعوبة..

بقيت "جين" على الأرض لوقت طويل!

*****

ساد الصمت أخيرًا.. وعندما عاد الزوج بعد ساعات طويلة وجد كل شيء هادئًا مُتجهمًا.. كانت "جين" تجلس إلى المنضدة المخلخلة تعبّ نبيذها العكر الحامض وقد ظهرت على عينيها علامات السكر البيِّن.. بينما رقد الولَدان ببطون خاوية على الأرض كيفما اتفق.. أما الطفلة

فقد كانت أكثر الجميع هدوءًا واطمئنانًا.. فقد كانت راقدة في مهدها هادئة مستقرة وقد أغلقت عيناها وانفرجت شفتاها عن ابتسامة محببة رائعة تذيب القلوب.. رقدت في قفصها تحيط بها قطع القماش والخرق الممزقة القذرة ببطن فارغ.. لكنها لم تكن تعاني جوعًا ولا ظمئًا ولا ألمًا.. ليس بعد الآن على أية حال.. فجسدها البارد لم يعد قادرًا على الشعور بأي شيء من كل تلك المشاعر المؤلمة.. كانت "سيلستين"، حينما عاد أباها من هروبه غير الطويل من الجحيم الذي تحول إليه البيت، قد تحولت إلى كتلة من اللحم البارد الشاحب.. الميِّت!

(٢)

لم يسألها أبدًا كيف ماتت الطفلة.. ولم يبْد أنه يهتم بأن يعرف حتى!

ليس في الأمر جديد؛ فأمور العائلة كلها لم تكن تهم الزوج في كثير أو قليل.. وكونه والدا للطفلة الراقدة ميتة لم يكن يضيف إلى الأمر إلا بُعدًا واحدًا فقط.. أن عليه الآن أن يدفن كتلة اللحم الميتة تلك!

ولم يكن في هذا العمل البسيط أي شيء يضايق الأب الذي فَقَدَ ابنته لتوِّه، أو يضيف إلى أحزانه قطرة واحدة عكرة.. وحدها كانت الأم متجهمة الوجه بملامح متصلبة وبحاجبين متهدلين فوق حافتي عينيها، اللتين لم تكن تبللهما قطرة دمع واحدة.. لقد ماتت الطفلة في هدوء مُزيلة جزءًا من الحمل الثقيل الملقى على عاتق الأم، مخلفة وراءها أبًا لا يُبالي، وأُمًّا

كفَّت عن الشعور والإحساس منذ زمن، وأخوين صغيرين لا يدركان سوى أنه كانت لهما أخت صغيرة وهي الآن ليست هنا.. لقد جاء ملاك صغير وصنع لها جناحان وأمرها أن تُحلق بعيدًا وقد فعلت.. هذا كل شيء.. أما الجسد الضامر بأمعائه الخاوية فسيكون مصيره التراب!

ولما لم يكن بوسع الأسرة تحمل نفقات استدعاء عربة موتى، أو دفع تكاليف الدفن الرسمي فقد كان الحل البسيط متوفرًا.. حفرة وسط جليد الشتاء المتراكم وقليل من ورق الأشجار الذابل يفرش مهد الصغيرة الأبدي، لترقد في نفس الثياب القذرة التي ماتت بها ويُهال عليها التراب.. طلب "دونات" من الأم أن تغسل الطفلة قبل دفنها.. لكنها رفضت بعناد مصرة على ألا تلمس الجسد الصغير البارد.. وظلت طوال الدقائق القليلة التي استغرقتها عملية الدفن تشيح بوجهها بعيدًا لئلا تقع عيناها على ابنتها الميتة المسكينة.. هذا ما ظنه الزوج وظنه الجار الوحيد الذي جاء ليقف احتراما برفقة عائلة "جين ويبر" على رأس قبر طفلتها.. كان السبب واضحًا.. الجوع والبرد وسوء التغذية.. لم يسأل الأب أية أسئلة ولم يكن ليفعل!

انتهى الأمر، وعادوا جميعا إلى المنزل الوضيع، ولم يفكر الأب في دعوة جاره الطيب إلى قدح من مشروب ساخن بعد انتهاء مراسم الدفن البسيطة.. أراد الجار أن يضع علامة على قبر الفتاة وأن يغرس وَتَدَيْن خشبيين على شكل صليب فوق مرقد البنت الصغيرة.. لكن الأم رفضت بعناد وشدة!

قالت لجارها بوجهها المتجهم المكسو بعلامات لا يمكن تفسيرها:

- "لقد عاشت قليلا وتعبت أكثر مما ينبغي لسنِّها، وقد ماتت الآن واستراحت.. دعها ترقد في سلام بلا اسم، ودع من أتى بها إلى الحياة يعرفها ويمنحها اسمًا جديدًا!"

لم يفهم الجار ولا الزوج شيئا ولم توضح "جين" ما تقصد.. إلا أن كل شيء انتهى على أية حال.. وفي الكوخ كان القفص الذي كانت تنام فيه البنت لا زال يتأرجح من الحبال المعلق بها، ويصدر صوتًا غريبًا جدًّا.. دخلوا جميعا وأغلقوا الباب في وجه الريح المصفرة الغاضبة، وجلست "جين" القرفصاء خلف الباب مباشرة ووضعت رأسها بين قدميها..

جلس الولدين بعيدًا وقد لاذا بالصمت، كانا يشعران بخوف مميت، نظر الأب نحوهما بعيون لا تكاد ترى شيئًا ولا تبالي بشيء.. كانت وعاء النبيذ هو ملاذه الأخير الآن، فذهب إلى الصندوق الذي تضعه "جين" تحت السرير محتويًا كنزهما الصغير من أوعية الخمر، لكنه وجد الصندوق بأكمله فارغًا.. أُخذت الأوعية بعيدًا واختفت.. المثير في الأمر أن ذلك لم يحدث أبدًا من قبل!

أصابت ضربة من الذعر قلب "دونات" الذي استدار نحو زوجته، التي اختفى وجهها بين ركبتيها، ونظر إليها برهبة، وقال بصوت متلعثم طفح الذعر على نبراته:

- "جين.. هل شربت الخمر كله.. جين.. النبيذ كله؟!"

مضت لحظة كانت "جين" خلالها ترتعش وتنتفض وتهوم برأسها المُنَكس بين ساقيها، وتتمتم بحروف وكلمات متقطعة غير مترابطة.. واصلت الاهتزاز العصبي لدقيقة أخرى، ثم بدأت ترفع رأسها ببطء.. رأى "دونات" تقاطيع وجهها المألوفة لكنه لم يكد يتعرف عليها.. انتفخ وجهها المستدير، وتضاعف حجم أنفها فَبَدَا ككرة صغيرة غليظة وسط وجهها،

تقاربت عيناها وبدا أن المسافة الكبيرة التي تفصل بين حاجبيها قد تلاشت أو كادت، وبدت كبومة بوجه منتفخ وعينين شديدتي الاحمرار، وذقن عريضة مترهلة غريبة الشكل.. نظرت إليه بذلك الوجه الجديد فأجفل، وأحس أنه يخاف زوجته للمرة الأولى..

لقد شربت الخمر كله ويبدو أن السكر البيِّن والفاجعة التي أصابتها بموت ابنتها قد أصاباها في مقتل، وغيَّرا حتى من ملامحها العادية المألوفة له وللجميع.. للمرة الأولى يشعر أنه يخافها وأنها مثيرة للرعب.. ابتلع ريقه بصعوبة بينما هي تنظر إليه وكأنها لا تراه، وهي فعلاً لم تكن تراه، ولا ترى شيئًا آخر مما حولها.. كانت "جين ويبر"، الزوجة والأم التي لم تكن قد دلفت عامها الثلاثين بعد قد تغيرت، في ساعات، تغيرًا كاملاً ومرت بتحول كامل.. أحس "دونات" بذعر ينمو داخله وهو يراقب ملامحها الشاذة الجديدة؛ بينما هي لم تكن تحس بأي شيء.. لا تحس بشيء، ولا تراه ولا تهتم به.. فلم تكن هناك لترى شيئًا مما حولها أو تشعر به.. زوجها هناك، وولديها قابعين على الأرض متلاصقين صامتين، والذعر مرتسم في عيونهما.. الأثاث البالي الرخيص في كل

مكان، الخِرَق الممزقة، بقايا مهْد "سيلستين"، ورائحتها الملتصقة بهواء الكوخ الفاسد رغم برودة الجو .. زوجها مرة أخرى هناك والشراب الحامض القوي يغلي ويفور في دمائها.. لكنها هي نفسها لم تكن هناك لتشعر بشيء من هذا أو تراه.. بل كانت تحلق في عالمها الخاص وترى مشهدا من كوابيسها المخيفة حيث تنام بعين مفتوحة وعين ناعسة وتحلم بشيء مخيف.. مخيف حتى أنها لا تجرؤ على تخيل أن هذا كان حقيقيًّا.. نعم.. لم يكن هذا حقيقيًّا أبدًا ولا يُمكن أن يكون!

*****

في الصباح كانت "جورجيت" هنا.. شقيقة "دونات" التي تعيش في حالة متيسرة نوعًا مًا وتقطن في حي (مونمارتر) بعيدًا عن قذارة الأكواخ، وبؤس العيش الذي تكابده "جين" وزوجها وأطفالها الثلاثة.. الذين كانوا ثلاثة وأصبحوا اثنين فحسب الآن.. وقد كان هذا سبب مجيء "جورجيت"، التي عرفت بخبر موت ابنة أخيها، ولم تدهش لأنها لم ترَ أي مظهر من مظاهر الحزن أو الحداد في المنزل الصغير.. لم تر حزنًا

بل رأت جنونًا، وأخافها منظر زوجة أخيها الثملة منتفخة الملامح، لكنها فسرت الأمر على هواها بأنه الحزن على طريقة السكِّيرين..

كانت تعرف أن أخاها وزوجته سكِّيرين ومدمني خمر عتيقين، لكن واجبها نحو العائلة كان يُملي عليها أن تقدم إلى أسرة أخيها المنكوبة خدمة.. لقد جاءت لتقدم عملا ل "جين" المسكينة وتمنحها فرنكات قليلة تتعيش بها هي و"دونات" والطفلين تحت مسمى آخر غير (إحسان).. ستستفيد من خبرة زوجة أخيها في العمل كجليسة أطفال، وسوف تستريح لبضع ساعات يوميًّا من عبء رعاية ابنتها "سوزان" الشقيَّة ذات العامين وأختها "جورجيت"، التي حملت اسم أمها، التي لم يتجاوز عمرها الثمانية عشر شهرًا.. بوسْعِها أن تعْهد بالطفلتين إلى أختها في القانون؛ زوجة أخيها، وتدفع لها مالاً تُنفقه على زوجها العاطل وأطفالها الصغار، مقابل أن تحظى هي نفسها؛ أي أخت الزوج، ببضع ساعات من نهار كل يوم، بعد انتهاء نوبة عملها، تقضيها في التسكع وشرب الشاي برفقة صديقاتها الجديدات ومشاهدة معالم باريس، بدلاً من أن تبقى لأربعة وعشرين ساعة يوميًّا تُنصِت إلى بكاء الصغيرتين، وتنظف لهما

مؤخرتيهما.. صفقة عادلة وسيحصل الجميع على فائدة ما!

عرضت "جورجيت" الأمر بطريقتها الباردة المحايدة، فلم تبدِ "جين" أي ممانعة.. نشطت فجأة حينما وقعت عيناها على الطفلتين وأنعشها ذكر النقود.. لا مشكلة بالنسبة للولدين فسوف يبقيان مع أبيهما طوال النهار.. وهو لا يفارق البيت أصلا، ويمكنه أن يبقى ليعبّ كؤوس الخمر أو يلعق القناني الفارغة إن لم يستطع سرقة المزيد من عناقيد العنب!

لم يعد الأمر يهم "جين" في شيء، فمنذ صباح الغد سوف تصير امرأة عاملة لها أجر منتظم.. ومقابل ضمانة النقود القليلة سوف تؤدي عملا خفيفا لشد ما اعتادته.. سترعى طفلتين صغيرتين جميلتين.. وهي تحب ذلك.. تحبه بشدة الآن أكثر من أي وقت مضى في حياتها!

(٣)

خلال بضعة أيام كانت الطفلتين قد اعتادتا الأمر؛ تخرج أمهما صباحا لتعمل في أحد مصانع الملابس النسائية الصغيرة في ساحة (فاندوم)، وتمنح كلا منهما قبلة على خدها الناعم الدافئ، لكن وقبل أن تكون أمهما قد اختفت خارج باب المنزل تماما تكون العمة "جين" قد جاءت لتتسلمهما، وتحل محل الأم في تقديم الرعاية لهما حتى الخامسة مساء، وهو موعد عودة الأم اليومي من عملها.. في البداية كانت الطفلتين تبديان بعض التذمر والعصيان، وتتعمدان إتلاف عمل العمة، التي صارت جليسة ملازمة لهما، ومحاولة جعل وجودها في المنزل غير ذي نفع، لكن "جين" صمدت وتمكنت من اكتساب محبة البنتين، وجعلهن لا يكادان يستغنيان عنها أكثر مما يستغنيان عن وجود الأم لعدة ساعات كل يوم.. بدورها

كانت العمة، التي ترتدي ثيابا أسوأ مما ترتديه مخدومتها، وتبدو دائما في منظر أشد بُؤسًا وأكثر فقرًا، تمنح البنتين المزيد من القبلات الدافئة والكثير من التدليل والمحبة.. كانت تغمر "سوزان" وأختها الأصغر بحبها لكنها، أحيانًا، كانت تُقدم على بعض التصرفات الغريبة!

كانت الأم قد أعطت لجليسة طفلتيها تعليمات مشددة بشأن طعام الطفلتين، والعناية بملابسهما ونظافتهما طوال فترة بقاءها في الخارج.. وفي الأيام الأولي لوجودها في عملها الجديد كانت "جين" تلتزم التزامًا صارمًا تامًّا بتلك التعليمات.. كانت تجهز الحليب مع القليل من السكر للابنة الكبرى "سوزان"، وتمنحها قطعًا صغيرة من الخبز اللَّدِن لتأكله بأسنانها اللينة مع اللبن.. بينما كانت البنت الصغرى "جورجيت" تأخذ طعامًا أقل وحليبًا أكثر بحكم أنها لم تُتم عامها الثاني بعد.. لكن في اليوم الرابع لقيام "جين" بعملها كراعية ومرافقة للطفلتين أصيبت البنت الصغرى "جورجيت" بنزلة معوية شديدة، وبدأت تتقيأ كل ما تطعمه وتلفظ كل ما يُقدم إليها، وشحب وجهها وأخذت أطرافها ترتعد.. كان واضحًا أن البنت قد أصيبت بخطب ما في أمعائها، وأنها غالبا

تناولت شيئا أضر بها بشدة.. بعد زيارة سريعة لمستشفي (أوتيل ديو) واجهت الأم زوجة أخيها، واتهمتها بالإهمال والتقصير في رعاية البنت فردت "جين" فورًا بدون تردد أو لجلجة:

- "إنني أضع عيناي عليهما طوال الوقت.. إنها طفلة والأطفال كثيرًا ما يمرضون!"

وبالفعل فكثيرًا ما يمرض الأطفال، وسرعان ما يشفون أيضا.. وهذا ما جرى مع "جورجيت" الصغيرة بالفعل، فلم تكد تمضي أيام قليلة حتى كانت قد شفيت وبدأت تستعيد صحتها وعافيتها.. ومع بروز أسنان جديدة في فكيها الصغيرين شبه الخاليين من الأسنان كانت تهمة الإهمال قد سقطت تلقائيا عن " جين "، وظهر المتهم الآخر الأكثر قربًا.. توعك التسنين!

ومرت أيام هادئة لم يحدث فيها ما يسترعي الانتباه أو يعكر الصفو.. عدا أن "جين" كانت تضمر وتفقد وزنًا بشكل سريع، وبدأت ملامحها تكتسب قسوة وحِدَّةً غير طبيعية أو مبررة.. حزنا على طفلتها ربما، إلا أنها كان يجب أن تكون أكثر صلابة وتماسكا لأن مزيدا من الأحزان

والآلام كان بانتظارها..

*****

كانت تلك أفضل أيام في حياة الزوج "دونات".. إن زوجته النكدية التي لا تكف عن الصراخ بوجهه، ومطالبته بالبحث عن عمل وإيجاد مصدر دخل للأسرة تبقى بعيدا عنه منذ الصباح حتى منتصف اليوم.. ويبقى هو ليشرب ما شاء له الشراب حتى تعود في السادسة مساء محملة بالأطعمة وحوائج المنزل!

كانت أخته تدفع لزوجته فرانكاتها القليلة بشكل يومي منتظم، لتساعدها على الوفاء باحتياجات المنزل والأطفال، التي تعرف أن أخاها العربيد السكير لن يفي بها مهما حدث، ولا هو يشغل باله بذلك الأمر أصلاً، ولا يكاد يفكر أن له أسرة معلقة في رقبته ومسئولة مسئولية كاملة منه.. لكن "جين"، ورغم أنها كَفَتْهُ مئونة الشجار الدائم والقلق بشأن الطعام، إلا أن تغيرا مخيفا بدأ يطرأ عليها.. لقد بدأ يخافها منذ يوم وفاة "سيلستين" الصغيرة!

"جين" كما هي، لكن أمرًا طارئًا جعلها تتغير بشدة.. لم تعد تتشاجر معه نعم، لكنها أيضًا لم تعد توليه أي اهتمام، أو تراه موجودًا وهو معها في نفس المكان.. كانت ترجع في موعدها اليومي المعتاد، ثائرة الشعر قذرة الثياب، وليس معها سوى كيس ورقي تبتاع فيه بعض السمك الصغير المقلي الرخيص، ومعه قليل من البطاطس المقلية، وكانت تشتري خبزا بائتا جافا ليكون أقل تكلفة، ثم تدخل بيتهما، أو كوخهما، صامتة.. وبمجرد دخولها تنادي الطفلين وتفرش لهما المائدة على المنضدة المخلخلة، وتضع لهما الطعام، ثم تدعوهما لتناول عشائهما، وتجلس بعيدا تراقبهما ولا تشاركهما تناول الطعام، ولا تدعوا زوجها للمشاركة في الوليمة الضئيلة..

كانت "جين" تعتبر نفسها في تلك المرحلة غير مسئولة سوى عن طفليها وحسب، أما زوجها فقد تركته ليعتني بشئون نفسه، إنه في الحقيقة كان يجب أن يكون المسئول عنها وعن أطفاله، وليس أن تكون هي المطالبة بتدبير شئونه وتوفير لقمة الخبز له.. وضعٌ مقلوبٌ؛ وأي شيء في حياتها كان طبيعيا أو متوافقا مع الطبيعة أبدا؟!

كانت "جين" تقوم بعملها بشكل طبيعي.. لكن ثمة شيء كان يُعكر عليها أيامها الصعبة بما يكفي ويُزيد نار جوفها اضطرامًا.. إنها تحلم دائمًا وكثيرًا جدًّا.. لكن أحلامها لم تكن أبدًا متنوعة أو متباينة.. فهو حلم واحد لا يفتأ يزورها في كل ليلة من لياليها الطويلة الكئيبة الباردة!
حلم واحد أو كابوس مكرر والغريب أن "جورجيت" الصغيرة كانت دائما هناك.. تبكي وتقاوم بيديها الصغيرتين وتختنق.. تختنق حتى الموت!

(٤)

دفعت الباب برفق ودخلت بهدوء تام.. كانت الغرفة شبه خاوية، والفراش الصغير فارغًا، والهدوء والسكون يعمان المكان، ويغلفان كل شيء بغلاف الوحشة، والنعاس الذي يغشي الكون ساعة احتدام الظهيرة.. سطوة الشمس حينما تنشر ظلها على العالم وتحتل قلب السماء فارضة قوتها المتوهجة وطاردة الظلام.. لكن ليس كل النور مطمئنًا، أو جالبًا للأمان؛ فثمة أنوار أكثر إثارة للذعر من كل الظلام الذي في الكون.. وقد كان الظلام يحتل سويداء نفس تلك المرأة، لذلك كان النور يخيفها، ويشعرها بالاضطراب.. كانت تكره أوقات الظهيرة خاصة في تلك المستشفى الصغير النظيف..

كانت المستشفى التي تقع في مدينة (أورجفيل) الصغيرة، والمخصصة

لعلاج ومتابعة الأطفال ورعايتهم في الحالات الحرجة قد وظفت تلك المرأة اللطيفة، التي كان يبدو عليها اللطف الشديد والفاقة، والتي تعرضت لمعاملة قانونية غير عادلة بالمرة، لتقوم برعاية الأطفال الذين تقدم لهم المستشفى الخدمة الطبية، في حالات عدم وجود الأم أو أحد المرافقين بجوار الطفل المريض، وقد كانت المرأة فيما يبدو لها خبرة طيبة في رعاية الأطفال، إذ سرعان ما اندمجت في العمل.. وكانت جهودها وخدماتها الصغيرة الإضافية، الزائدة عن واجبات العمل المطلوبة منها والتي تُبادر عن طيب خاطر بتقديمها إلى زملائها في العمل وإلي أمهات الأطفال المرضي، قد أكسبتها رضا وثقة جميع من يعلمون بالمؤسسة الطبية.. ابتداء من المدير المتحمس الصارم دكتور "أولفييه"، نهاية بأصغر عاملات المستشفي وأطباؤها وعملاها.. ولأنها مصدر ثقة من الجميع فقد كانت تحركاتها في المستشفي غير موضوعة تحت أي قدر من الرقابة أو المتابعة.. وكانت السيدة "ماري ليمونيه"، بحسب البيانات التي أعطتها للمستشفى، في الثانية والأربعين، غير متعلمة وإن كانت تعرف كتابة حروف اسمها وجمع الأرقام البسيطة، ذات وجه مستدير

لطيف، وإن كانت ملامحها غير جميلة.. فقيرة مدقعة الفقر، كما يبدو، على ملابسها ولهجتها تدل على أنها جاءت من قاع المجتمع الباريسي، أو أنها تنتمي لأصل ريفي غير حضري..

ولكن تلك الأمور لم تكن لتقلل من فرصتها في الحصول على عمل، ولا حتى عدم وجود شهادة ميلاد أو أوراق رسمية تثبت شخصيتها بحوزتها، وقد أجابت حينما سئلت عن تلك المصوغات الرسمية من قبل إدارة التوظيف في المستشفى بدموع غزيرة محرقة، وبقصة طويلة روتها عن بيتها الذي احترق منذ شهور، واحترق معه ولداها وزوجها، وأبرزت لهم ما هو أقوي من أي ورقة رسمية، فقد أظهرت للممرضات اللائي كن يتولين اختبارها من أجل منحها العمل، حُروقًا مختلفة الدرجة مخفية أسفل ثيابها في مواضع مختلفة من جسدها.. استمالت الجميع بنظراتها المستعطفة، ومع وعدها باستخراج بديلٍ لكل تلك الأوراق الخاصة المفقودة حُسم الأمر.. وحصلت السيدة التي بلا هوية على العمل!

وفي ظرف أيام كانت قد حصلت على ثقة الجميع، وكانت هي نفسها، بدأبها وجدها وتفانيها في العمل، مستحقة لكل ذلك القدر من الثقة

والتقدير.. إلا وأنه وفي يوم التاسع من يونيو من عام ٧٠٩١، وبعد حصول السيدة "ليمونية" على العمل في المستشفي كجليسة مقيمة لنزلاء المستشفى من الأطفال المرضى بأقل من أسبوع، وقع أمر عجيب لم يحدث له نظير من قبل، ولا يتوقع أحدٌ أن يتكرر مرة أخرى في تاريخ تلك المؤسسة الطبية الناجحة..

فلقد كانت كبيرة الممرضات المدعوة "أوجيني" تقوم بجولة اعتيادية لمتابعة سير العمل من قبل طاقم التمريض، وتُشرف على طرق الرعاية والعناية المقدمة للمرضى الصغار حينما دخلت غرفة فتى صغير، لا ترافقه أمه، يُدعى "أيرفن"، ووجدت هناك الموظفة الجديدة السيدة "ليمونية".. وقد كانت تقدم للطفل نوعًا خاصًّا جدًّا من الرعاية.. فقد كانت تحيط رقبته بيديها بشدة وتخنقه، بينما الطفل ذو الأربعة أعوام يحاول، دون جدوى، أن يتملص منها ويقاومها!

صرخت "أوجيني" وانتزعت الطفل منها، بعد صراع قصير ساخن، بالقوة.. ثم فتحت فمها لتطلق أعلى صرخة سُمعت أبدًا في ذلك المكان!

××××××

آوى الطفلين إلى فراشهما، الذي لم يكن سوى مراتب قديمة نخِرَة تعمرها الحشرات المتنوعة مفروشة على الأرض، بينما بقي الأب يعب كؤوس الخمر غير مبال بزوجته التي تجلس، على الناحية المواجهة له، ترقبه بعينين كعيني الصقر!

كان "دونات" قد وصل إلى (هناك) منذ فترة طويلة.. ولم يعد يبالي حرفيًّا بأي شيء يحدث حوله.. إنه سكير عاطل بلا عمل، ولا يستطيع أن يكسب ما يُقيم أَوَدَ أولاده وزوجته، ولا يحاول حتى أن يفعل.. وأيامه كلها تبدأ بدايات متشابهة وتنتهي أيضا نهايات متشابهة، ولا رفيق له يُؤنس وحشة أيامه سوى الكأس.. وبديلا عن القبر الذي يستحق أن يُدفن حيا فيه، فقد أختار هو بإرادته الحرة أن يَدفن نفسه في قعر كأسه، ويتدثَّر بحبيبات النبيذ والكحول الرديء عساها تكسوه بثوب يخفيه عن عيني زوجته، التي لم يعد يتحمل نظراتها الحادة الحارقة، التي لا تكف الآن عن التطلع إليه وتسليطها عليه.. كان "دونات" قد أضحي مُهَانًا في بيته بسبب بطالته وسكره الدائمين.. لكن لم يكن هذا هو كل شيء!

ف" جين " غاضبة الليلة.. غاضبة أكثر مما ينبغي فقد عنفتها

"جورجيت" الأم؛ أخت زوجها، واتهمتها بالإهمال والتقصير للمرة الثانية.. ثم فعلت ما هو أكثر فظاعة وأكثر إثارة لجنون المرأة، التي تعمل كخادمة وعبدة تحت الطلب، لتعول طفلين بائسين وزوج تافه سكير لا قيمة له، لقد أمرتها بشيء من الصَّلَف أن تأتي مبكرة جدا صباح الأحد القادم لأنها، أي "جورجيت" الكبيرة، مرتبطة برحلة خارج باريس اتفقت عليها ووضعت خطتها منذ فترة مع أصدقاء لها وصديقات من داخل العمل وخارجه.. شعرت "جين" بالمهانة الشديدة.. وفي صدرها كانت هناك ثورة خامدة، نارها حيَّة لكنها تحت الرماد، لسبب آخر تافه.. فقد حصلت كلا البنتين "سوزان" و"جورجيت" على ثياب جديدة متقنة التفصيل!

أمرٌ صغير؛ لكنه أثار حفيظة "جين" بشدة.. فلقد سرت قشعريرة في جسدها حينما كانت مستخدمتها، أخت زوجها، تفض الحقائب، وتُخرج الثياب الجديدة الجميلة وتعرضها على طفلتيها، اللتين لم يفهما من الأمر كله شيئا عدا أن أمهما قد أحضرت لهما شيئا جديدا يجدر بهما أن تفرحا به، وفعلا انطلقت ضحكات الطفلتين، بينما كانت كل عضلة

في جسد مُربيتهما وجليستهما تتقلَّص وكل خلجة في بدنها تنتفض وتضطرب.. لقد تذكرت أطفالها وتذكرت كم هي عاجزة عن توفير شيء صغير مبهج لهم كتلك الثياب التي لم تكن، على أي حال، باهظة الثمن أو جيدة الصنعة للغاية.. تذكرت على وجه الخصوص منظر "سيلستين" الصغيرة الميتة، وهي ملفوفة بالخرق القذرة ومُحاطَة بمظاهر الإهمال، والشقاء وقلة الاكتراث.. ضربتها تلك الصورة الصغيرة في مقْتل، ووجدت نفسها تنظر بعين سوداء حاقدة نحو البنتين خاصة "جورجيت" الصغيرة.. التي كانت ضحكاتها الصافية المرتفعة أقوى وأشد من أن تتحملها "جين".. أو تغفرها بسهولة!

ولكن الموقف مرَّ على خير.. ونُسي كل شيء من طرف أخت الزوج على الأقل.. أما "جين" المُهانة، التي تعتقد أنها أُهينت إهانة كبيرة لا تغتفر، فلم تكن لتنسى أو تسامح أو تغفر!

*****

على أصوات الصراخ والاستغاثة جاءت النجدة في صورة حشد كبير من المتطفلين والمسئولين.. مسئول المستشفى ومديرها السيد "أوليفييه" كان

أول الحاضرين، لأنه تصادف مروره بجوار تلك البقعة المضطربة، قبل أن تصدر صرخة الممرضة بنصف لحظة، وخلفه جاء عدد من الأطباء والممرضين والممرضات، وكل من له صيغة مسئولة أو لم يكن له، احتشدوا كلهم في الغرفة الصغيرة وأحاطوا بالمشهد الغريب الذي كانت تتصدره السيدة "ليمونية" وكبيرة الممرضات.. كانت "أوجيني" تحمل الطفل المغدور، الذي كان أن يصبح كذلك، بحرص وتحيطه بذراعيها بقوة، وكأنها تخشى أن تُقدم المرأة المجنونة على انتزاعه منها ومحاولة خنقه للمرة الثانية.. أما السيدة "ليمونية" فقد كانت صامتة ترتعش أطرافها وتضطرب شفتاها محاولة أن تقول شيئا، أو تختلق عذرًا أو كذبة تبرر بها موقفها الشاذ الغريب..

مدير المستشفي أدرك من نظرات ممرضته الأولى الباهتة المذعورة أن ثمة خطب هائل كان يجري هنا.. ولاستكمال عملية التفاهم بالعيون أصدر لها أمرًا صامتا بنظرة حادة آمرة وهزة رأس لا تكاد تُرى أن تتكتم الأمر، ولا تفضي بشيء مما حدث في وجود كل هؤلاء المتطفلين.. فقد زادت الطينة بلة بحضور عدد من أمهات الأطفال المرضى المقيمات مع

أطفالهن على صوت الصرخة الحادة، وصار المدير في موقف لا يُحسد عليه بالفعل!

فهمت "أوجيني" الأمر الصامت فابتلعت ريقها، وقالت بصوت متحشرج متلعثم نظرًا لأنها لم تتعود الكذب:

- "لقد وجدت السيدة "ليمونية" قد قامت بتنظيف الغرفة.. لكنها تركت النوافذ مفتوحة بعد أن انتهت.. مما قد يؤدي إلى إصابة الطفل بتيار بارد يُهدد صحته!"

تبريرٌ عفويٌّ شبه مقبول، لكن الجميع أحسوا أن الأمر أكبر بكثير من مجرد نافذة نُسيت مفتوحة، وتيار بارد.. لكنهم تقبلوا الحجة على أيه حال، وأخذوا ينصرفون في إثر بعضهم وهم يثرثرون عن صرخات الممرضة المجنونة التي أفزعتهم كلهم، وانتزعت الصغار المرضى ومرافقيهم من أسِرَّتهم من أجل شيء تافه لا يستحق!

أخيرا فرغت الغرفة ولم يبق بها سوى مدير المستشفى، ومعه كبيرة الممرضات تتحفظ على الطفل بين ذراعيها ومعهما السيدة "ليمونية" صامتة مرتعدة تضطرب شفتاها وترتجف خلاياها.. تنفست "أوجيني"

بصوت مرتفع وقالت فجأة على حين غرة:

- "لقد ضبطت هذه السيدة وهي تخنق هذا الصبي.. كانت تحاول قتله!"

شحب وجه مدير المستشفي فجأة وقال بلهجة تحمل من الذهول أكثر مما تحمل من التكذيب:

- "ماذا؟!"

كان يعرف كبيرة ممرضاته جيدًا، ويعرف أنه لا علاقة من أي نوع تربطها بالمستخدمة الجديدة التي بلا هوية ولا أوراق رسمية، عدا علاقة العمل الرسمية للغاية.. وبالطبع لم يمر على وجود السيدة "ليمونية" في العمل ما يكفي لتكوين ضغائن أو حساسية بينها وبين أحد من زملائها في العمل، خاصة كبيرة الممرضات، التي ترأسها مباشرة وتشرف على نشاطها في المكان، ولم تكن "أوجيني" من نوع الرؤساء الذين يستغلون سلطاتهم، أو يحاولون أن يُكوِّنوا أحزابا ممالئة لهم من مرؤوسيهم أو استغلال سلطتهم بأية صورة من الصور.. بالأحرى لم يكن هناك سبب واحد مقنع يمكن أن يجعل الدكتور "أوليفييه" يشك، ولو باحتمال مقداره واحد بالمائة، أن موظفته القديمة يمكن أن تكون متجنية على

الموظفة الجديدة في هذا الاتهام، أو أنها تلصق بها تهمة زائفة .. لكن ما الذي يدفع المدعوة "ليمونية" للإقدام على مثل تلك الفعلة المنكرة؟!

نظر في عينيها مدققا صامتا ثم سألها فجأة بصوت حذر:

- "أهذا صحيح يا "ماري".. أكنتِ تحاولين قتل الصبي الصغير.. ولماذا؟!"

تلعثمت "ماري" وحاولت النطق، لكنها فشلت في استخراج جملة مفيدة واحدة من قاع روحها المظلمة لتبرر بها موقفها الغريب الشائن.. إنها هي نفسها لا تعرف لماذا تُقدِم على تلك التصرفات الحيوانية الشاذة.. ماذا تقول لتبرر ما فعلته الآن وما فعلته مرارًا سابقا؟!

ماذا تقول.. ولمن تقوله؟!

لنفسها أم للآخرين؟!

كانت تفكر؛ لكنها عاجزة عن تحويل أفكارها إلى كلام منتظم مفيد، إنها تعاني من حالة سيولة لا تنقشع في أفكارها، يقابلها احتباس مزمن في قدرتها على التعبير عنها.. دائمًا ما كانت تجد ما تفكر فيه وتعتقده، لكنها دوما كانت تعجز عن التعبير عنه أو إخراجه في صورة تعبيرات

بشرية مفيدة وقابلة للنقاش حولها!

تلعثمت؛ وكان تلعثمها وعجزها عن الكلام دليل اتهام كاف جدًّا في نظر مدير المستشفى.. إن "أوجيني" صادقة تمامًا في دعواها، وها هي المتهمة تختم على صحة الإدعاء بصمتها المخزي وتلجْلُجها المُشين.. لكن كيف يتصرف الآن!

اقترحت الممرضة التي غابت عنها حقائق مهمة كثيرة:

- "لنبلغ الشرطة.. لابد إنها متهمة خطيرة وربما لها سوابق وسجل إجرامي أيضًا.. لابد من إبلاغ الشرطة!"

همس المدير لنفسه بجملة ما لم تسمعها "أوجيني" ولا "جين" جيدًا، لكنه صمت بعدها للحظة وهتف أخيرًا بصوت واضح متزن بعد أن حسم موقفه وقرر ما يتوجب عليه فعله:

- "لا.. لن نسمح بتدخل الشرطة هنا.. ذلك سيدمر سمعة المستشفى!"

اتسعت عينا "أوجيني" اتساعًا شديدًا، حتى لتبدو وكأن عيناها ستفارقان محجريهما وتفلتا منهما إلى الأبد، وكان توسع عينيها الشديد يتناسب طرديًّا مع عظم الدهشة التي تشعر بها.. إن ما تشهده هنا لهو موقف

بحق مُخزٍ ومثيرٍ لكل تعجب.. لماذا يأبى مديرها أن يستدعي الشرطة لتقبض على تلك القاتلة، التي شرعت في القتل على الأقل، وتقودها إلى المكان اللائق بها تمامًا.. السجن والمحاكمة؟!

كانت تحسبها بالمنطق البسيط.. لكن الدكتور "أوليفييه" كان له منطقه هو الآخر، وكان أكثر بساطة ووضوحًا... إنه منطق الخسائر والأرباح!

هذا ما لم تكن المرأة الطيبة المخلصة، التي تربت على الواجب ومراعاة النظام والتقاليد بصرامة، مستعدة لفهمه.. لكن "ماري" سرعان ما أحست أنها ستفلت من العقاب والملاحقة، بنفس الطريقة التي أفلتت بها في المرات السابقة كلها.. إن تلك الفئة من القتلة لا يفلتون إلا بسبب غريزتين بشريتين سيئتين ولا ضرورة لهما بحق: غريزة الثقة العمياء المُفرطة في الغير.. وغريزة الثقة العمياء في حسن تقدير الأمور وتصريفها لدى النفس!

وبهاتين الغريزتين واجه المدير الموقف الدقيق الذي حدث في مستشفاه في ذلك اليوم.. إنه يثق ثقة كاملة في مرؤوسيه، كرد فعل لثقته المفرطة اللامتناهية في نفسه، ويثق بنفس القوة في حسن منطقه وتمامه، وأنه

هنا يفعل ما يجب عليه فعله وليس غيره!

للمرة الثانية اقترحت "أوجيني" وهي تضم الطفل إلى صدرها بينما هو يزوم ويدمدم خائفًا:

- " يجب أن تسلمها إلى البوليس يا سيدي.. ليس هناك سوى الشرطة!

أخفض الدكتور "أوليفييه" رأسه للحظة، وطفق يتأمل الأرضية المنقوشة بمربعات سوداء وبيضاء متراصة متساوية الحجم.. رمق ما تحت قدميه بتركيز لأنه يعرف جيدًا أن موقفا كهذا يستدعي من المرء أن ينظر تحت قدميه لينجو.. لا أن ينظر إلى الأمام فيدمر نفسه ويدمر سمعة المستشفي التي تعب طويلا لتصل إلى تلك المكانة والمقدرة!

أخيرًا حسم موقفه نهائيا، وأستقر قاربه المهتز على شاطئ صلب، وإن كان مظلمًا مهجورًا يفتقد المنارة، كما يفتقد المنطق والعقل والضمير، فرفع وجهًا محملاً بالهم والشقاء.. كانت تلك أصعب لحظة في حياة دكتور "أوليفييه".. إنه يخالف قسمه وضميره وأخلاقه، لكن يكفيه أنه يدافع عن الصرح الأكبر والأهم والأكثر بقاءً من كل تلك المُثُل الشكلية الزائفة.. في حياة كل شخص لحظة يجب عليه فيها أن يتخلى عن مثله

ولو لمرة واحدة في حياته.. وكانت تلك المرة الخاصة بدكتور "أوليفييه" الذي أشار برأسه نحو باب الغرفة المغلق من الداخل.. وهتف بصوت مبحوحٍ خجلٍ مما يفعل، لكنه محمل بالثقة في صحته:

- "سيدة "ليمونية".. من فضلك افتحي هذا الباب واخرجي منه.. ثم توجهي نحو باب المستشفى الرئيسي وغادري هذا المبني فورًا.. ولا تعودي إليه ثانية في أي يوم من الأيام ولا تفكري في ذلك!"

شهقت "أوجيني" متألمة، بينما ثملت "ماري" بالنجاة والسعادة الخفية.. وبدون أي تردد وبخطوات لا يعتريها تردد ولا جزع نفذت الأمر، وغادرت مشفي الأطفال في ذلك اليوم، دون أن تُعاقَب على ما حاولت فعله، ودون أن تعلق بأذيالها أية عقوبة من أي نوع..

فقد الدكتور "أوليفييه" شرفه إلى الأبد من أجل سمعة المستشفى التي يُديرها، وفقدت "ماري ليمونية" فرصة إضافة ضحية أخرى جديدة إلى قائمة ضحاياها.. التي لم ولن تتوقف عن النمو والتضخم لسنوات كثيرة قادمة!

(٥)

كانت الفتاة أمام عينيها الآن.. إنه صباح الأحد، واليوم مشرق، والكون يُمارس عادته القديمة في تدليل نفسه حينما يكون راضٍ تمامًا عنها.. "جورجيت" الأم كانت قد غادرت المنزل بينما كانت ساعة الكنيسة القريبة تدق عشر دقات منتظمة رتيبة معلنة أن الصباح لا زال موجودًا، لكنه يهدد بالرحيل السريع تاركًا المدينة في قبضة الظهيرة المتوقع أن تكون حارة كآخر عنفوان يمارسه الصيف قبل أن يُؤذن، مثله كمثل صبحه غير المقيم، بالرحيل والأُفُول.. ذهبت الأم العاملة الشابة في رحلتها المنتظرة، التي خططت لها طويلاً، إلى ضاحية "سان أوان"، تاركة طفلتيها في عُهدة ورعاية زوجة خالهما التي تقوم بدور المُربية والجليسة للبنتين منذ شهور قليلة.. لم تُقَصر "جين" في مهمتها من قبل، لكنها تعرضت للتعنيف غير القاسي واللوم من مستخدمتها، التي

هي تعتبر أختها قانونا، لبضعة أسباب وعوامل تراها كلها تافهة وغير ذات قيمة أو معنى!

لكن في كل الأحوال فإن الجليسة لم تكن تحمل ما يمكن تسميته بضغينة نحو مستخدمتها وقريبتها الشابة.. ليس هناك سبب لكي تحقد عليها أو تكرهها، ولم تشعر في مشاعرها الطافية على السطح من قبل بأي كراهية أو حقد، أو رغبة في الانتقام نحوها.. بل ربما كان جدير بها أن تتحمل نفسها بالامتنان لأجلها، لأنها منحتها عملاً وبضعة فرنكات تعيش منها هي وطفليها وزوجها العاطل السكير، الذي لا يبدو أنه ينوي التنازل عن عاداته السيئة عما قريب.. لا ضغينة في قلبها نحو أم الطفلتين، وهذا ما كانت تعرفه عن نفسها.. لذلك فلم تكن تشعر بأي شيء غريب أو تخطط له بينما هي تودع، بلا حرارة، مستخدمتها على الباب وتتلقى منها تعليمات مشددة بشأن رعاية الطفلتين طوال مدة رحلتها الخلوية التي قد تطول حتى العاشرة مساء، إن وجدت أن الرفقة الطيبة مرحة بما يكفي لقضاء يوم كامل معهم..

ذهبت الأم إذن وكان على "جين" أن تبقى بالبنتين حتى منتصف الليل

تقريبًا، ولم يكن هذا يُزعجها.. كما لم يكن يزعج "جورجيت" الكبيرة أنها تترك صغيرتها مريضة متوعكة قليلا، وتذهب لتقصف وتمرح مع رفاقها، بدلاً من أن تجلس بجانب صغيرتها لكي تتولى رعايتها وتمريضها.. إلا أنها، كما ترى نفسها، لم تقصر في حق أطفالها، وتركت "جورجيت" الصغيرة وأختها البكر في رعاية زوجة خالها، وهما يحبانها حقا كما أنها، أي "جين"، حفيَّة جدا بالطفلتين وتقدم إليهما الرعاية المثلى بالضبط..

استقلت الأم عربة حملتها هي ورفاقها الذين كانون يُغنون ويضحكون بصوت مرتفع، إلى التحصينات الخارجية لمدينة (باريس)، حيث يمكنهم بعد ذلك أن يستقلوا عربة أخرى عامة إلى الضاحية الشهيرة بحركة المتنزهين والرحلات الخلوية أو يأخذونها سيرًا على الأقدام، كما يفعل كثير من المتنزهين هناك، كنوع من ممارسة متعة المشي في الهواء المنعش الطلق.. على كل حال فلم تكن اختيارات أختها القانونية لتعني "جين" في شيء.. فلم يكن هناك شيء على الإطلاق يدور في رأسها في تلك اللحظة، وهي ترقب أولئك المنعمين المرفهين، بالنسبة إليها،

وهم ينطلقون بثياب يوم الأحد النظيفة وبقمصانهم النظيفة المنشاة الشاهقة البياض ضاحكين صاخبين مترنمين بالأغاني المرحة، إلى حيث يحصلون على المزيد من المتعة والترفيه.. كانت تراقبهم من خلف الزجاج الذي ألصقت به وجهها بطريقة جعلت ملامحها تتضخم وتتبعج معطية إياها شكلاً غريبًا وربما مُخيفًا كذلك!

لكن في دخيلة نفسها لم تكن ثمة أية مشاعر سيئة.. إنها تحب البنتين حقًّا.. تحبها مثلما أحبت "سيلستين" الصغيرة..

لماذا يوجد الأطفال في هذا العالم.. إنهم يشقون ويجلبون الشقاء للآخرين؟!

"جورجيت" الصغيرة كانت خلفها نائمة بعمق، بعد أن تعاطت جرعة سخيَّة من الدواء.. جرعة أكبر مما ينبغي فقد أشار الطبيب بإعطائها ملعقة من دواء مضاد للسخونة وارتفاع درجات الحرارة، لكن ولأن جليستها كانت تحبها حقًّا، فقد كانت سخيَّة كريمة معها، وجعلتها ترشف بأسلوب الإغراء والتدليل ثلاث ملاعق كاملة من ذلك الدواء المهدئ للحرارة..

لماذا يوجد أطفال في هذا العالم ولماذا كُتب عليهم الشقاء؟!

إن تلك الأنفس الصغيرة الغضة اللينة الخضراء لا يجب أن تعاني، أو أن تكون سببًا في معاناة غيرها.. إنهم أطهر وأكثر نقاءً من أن يبقون هنا.. إن العالم مكان كريهٌ ومحمل بالشقاء والحماقة فعلاً.. أخطأت في حق أطفالها حينما اختارت أبًا سكيرًا منحرفًا لا يدرك مسئولياته، وأخطأت في حقهم أكثر حينما اختارت أن تلدهم من ذلك الأب.. خطأ مركب ارتكبته هي، ودفع ثمنه ثلاثة أطفال أبرياء.. اثنان فقط الآن لكنها لا تزال محملة بوِزْر ابنتها!

لقد بقيت وقتًا أكثر مما ينبغي.. كان يجب أن تكتم أنفاسها فور أن وضعوها تحتها وقالوا لها أنها ولدت بنتا.. لم تشعر بضخامة وِزْرِها، وجسامة الخطأ الذي أقدمت عليه، بزواجها من "دونات" إلا حينما خرجت "سيلستين" من أحشائها، فقد أدركت ساعتها أنها منحت البؤس، الذي عانته طوال حياتها، وأهدته لطفلة صغيرة بريئة لا تدرك شيئا ولا تستطيع أن تفهمه.. ماذا بوسع طفلة أن تفهم؟!

إنها ستعيش إلى الأبد في حالة مُزرِية، ملامح طبَّعها الفقر بجهامته

وقبحه المصطنع، ملابس ممزقة، وجه لا يُغسل إلا نادرًا، بلا فرصة لدخول المدرسة، أو تناول قطعة حلوى أو التمتع بالملذات الصغيرة الآثمة، المُحملة بالبراءة، التي يتمتع بها الأطفال ويُوفرها لهم الآباء.. ماذا يستطيع "دونات" أن يُوفر لطفلته.. لا شيء على الإطلاق، عدا عناقيد العنب المسروقة المتعفنة، وربما قليل من كؤوس الخمر الرديئة الصنع السيئة الطعم.. لا طعام لين، ولا قطعة حلوى، ولا حتى دمية محشوة بالقماش أو الإسفنج.. من كان سيصنع تلك الدمية للصغيرة السيئة الحظ والمولد؟!

أمها؟!

إن أمها لا تستطيع أن تصنع لها دمية، ولا أن تبتاع لها لعبة، فلم يُعلمها أحد كيف تحب نفسها؛ لذلك هي عاجزة عن أن تُحب أحدٌ غيرها، على الإطلاق لم تشعر بمحبة صافية نحو أحد.. حتى أطفالها الصغار!

نعم حتى أطفالها الصغار.. إنهم إثمها وذنبها يسير على الأرض.. خطاياها الصغيرة بأوجه ملوثة، وثياب ممزقة، وأيد ممدودة بائسة تستجدي كسرة الخبز!

ومن أجل ماذا كل هذا العناء.. ولأي هدف.. لأية حكمة بدأ كل هذا وكيف السبيل إلى إنهائه؟!

جاءت صرخة "جورجيت" الواهنة من خلفها، وقد استيقظت من نومها القلق المتعب أخيرًا، فانتزعت "جين" بقسوة من أفكارها.. استدارت لتنظر إلى حيث استوت الطفلة في مهدها.. فجأة تداخلت أفكارها وتشوشت.. أحست كأن مذياعًا رديئًا يُشوش بصراخه المتداخل على أفكارها، ويحاول أن يحتل، بسطوته، فراغ رأسها الصغير.. كلا لن تسمح لأحد بأن يشوش أفكارها، أو يُخبرها بما ينبغي عليها صنعه.. لقد مشت خطوتها الأولي في طريقها الصائب المستقيم من قبل، ولن تسمح لنفسها بالتراجع.. إنها وحدها المُخَوَّل لها، بحق مكفول من الرب ذاته، أن تُنهي كل هذا الشقاء وتتصرف بوحيٍ من عقلها وضميرها وحدهما.. عقلها وضميرها اللذين أخبراها أن "جورجيت" الصغيرة ك" سيلستين " كلتاهما طفلتين، وكلتاها بريئتين.. وكلتاهما ستكبر لتعاني بشكل ما.. إنها تحب "جورجيت" الصغيرة!

لأول مرة منذ أن دخلت ذلك البيت لترعاها، هي وأختها "سوزان"،

تشعر أنها تحب الطفلتين إلى هذا الحد.. تحبهما كلتيهما لكنها تحس الآن أنها تحب "جورجيت" أكثر.. إنها الأصغر والأكثر لطفًا.. إنها المريضة المتوعكة التي تعاني آلام المرض المبرحة، وهي الأكثر استحقاقا لرعايتها ومحبتها الآن..

لم تشعر "جين" يوما بحبٍّ نحو مخلوقٍ حيٍّ يومًا مثلما تحس الآن نحو ابنة أخت زوجها الصغيرة، ربما فيما عدا تلك المرة التي شاهدت فيها بؤس ابنتها وشقاءها الصغير، الذي سرعان ما سيكبر معها ويصير ضخمًا هائلاً مُخيفًا ومُرعبًا، وأكبر من أن تستطيع أية قوة التغلب عليه، وقررت أن تحب ابنتها بطريقتها.. ليس بمنحها قبلة على خدها الشاحب ولا بمسح القاذورات التي علقت بجسدها الصغير.. بل بمنحها حياة أخرى جديدة، وإرسالها إلى حيث تستطيع أن تأكل جيدًا، وترتدي أفخر الثياب وتملأ شدقيْها بالحلوى، وتمرح في المروج الواسعة وتنعم بالرفقة الطيبة مع صغار طيبين في مكان طيب.. لا خوف فيه ولا حرمان ولا ألم.. هناك حيث تستقر الأرواح السعيدة.. في الجنة!

في الجنة لا حرمان، ولا مرض ولا ألم ولا حناجر متورمة.. كانت

"جورجيت" قد صحت صارخة من الألم بحلق متورم ككرة صغيرة صلبة!
نظرت إليها "جين" نظرة بلا معني لكنها بالغة العمق.. توهجت نيران سوداء في عينيها، وأصبح قعر عينيها كأنه قعر جهنم تتلظى فيه النيران وتفور وتبصق الشرر.. ما ضرورة كل هذا الشقاء ولماذا يجب أن يستمر؟!
لم تسأل أحدًا... فالسؤال هو سؤالها وحدها.. ووحدها يجب أن تجد الإجابة المناسبة، حتى وإن لم تكن الإجابة الصحيحة.. فليست كل الإجابات المناسبة هي إجابات صحيحة.. فما أندر الإجابات الصحيحة وما أصعب الحصول عليها!

إن "جورجيت" الصغيرة تعاني، بينما أمها هناك في "سان أوان" تتبختر بزورق في مجرى السين لتنعم بالبرودة والانتعاش.. إن الأطفال نوعين؛ نوع لا يستحق أبائهم، ونوع لا يستحقهم آباؤهم، وكلاهما بائسين!

كلاهما أكثر بؤسا من النوع الآخر.. وهي تكره البؤس وتكره أن تدعه يفترس أحد سواها.. لينتهي الألم والعذاب وعدم الجدارة، وليذهب كل شيء إلى الجنة.. ففي الجنة وحدها ستجد "جورجيت"، مثلما وجدت ابنة خالها "سيلستين" الصغيرة من قبل، إجابتها الوحيدة الصحيحة!

أغمضت "جين" عينيها ومضت تتحسس حنجرة الطفلة المتورمة بحنوٍّ بالغ.. همست لها وهي تضغط على جفنيها بقوة:

- "هششششش.. ستكونين بخير.. الآن سيصبح كل شيء على ما يرام.. العمة "جين" ستعتني بك.. العمة "جين" تحبك!"

وضعت "جين" يدها على حنجرة الطفلة وراحت تتحسسها برفق.. تتحسس اللحم الحي المتورم النابض الساخن.. ما أجمل أن تحس بالنبض في اللحم الحي تحت يديك.. إنه إحساس يمنحك قوة وسيطرة مذهلة..

*****

تقلب "مارسل" الصغير في نومه وأنَّ في خفوت.. كان الولد متوعكًا قليلاً، لم يكن مريضًا بصورة جدية، إلا أنه لم يكن في أتم صحة أو أحسن حال.. والحقيقة أن الصبيين الصغيرين قد تبدل حالهما منذ يوم موت أختهما الرضيعة، لم يزدْ بؤسهما أو يقل عما قبل، لكن ثمة شيء جديد طرأ عليهما.. بدأ الأمر عند الولد الأصغر "مارسل" الذي بدأ ينظر إلى

أمه نظرات خاصة غريبة، لم يتفهم أخاه الأكبر معناها، وأخذ يسخر من الجني الصغير الذي سكن عينيه وجعل يطل منهما ناظرًا إلى الأم بنظرة بيضاء تطل منها أيادي مُستغيثة مُرتعشة، لم يكن الولد يستنجد بأمه، هذا ما أدركه أخيه متأخرًا، كان يستنجد منها.. كان يخافها، يتحاشاها، يشعر بذُعر لمجرد وجودها بقربه، أو وجوده بمفرده معها في مكان ما..

كانت تعود إلى الكوخ مساء ومعها الطعام، وتدعوا الولدين للأكل، فكان الولد الكبير يسرع نحوها ويهش إليها ويبش، ويضحك في وجهها سعيدًا بأنه سيحصل على وجبة حقيقية، طعام كثير حقيقي يملأ معدته الفارغة طوال النهار، ويجلس بجوارها.. كانت الأم تفك لفائف الطعام حينئذ، وتبدأ في عرض ما جلبته على أنظار ولديها، ولم يكن ما تجلبه عادة يزيد على أرغفة صغيرة من الخبز، وبضع قطع من الجبن أو اللحم الرخيص المسلوق، الذي تفوح منه رائحة الخضر الكريهة التي طهيت معه، أو مقادير يسيرة من عصيدة الذرة البيضاء.. لكن تلك النذر اليسيرة من الطعام كانت تبدو في عيني طفل، طالما جرب الجوع وخلو

المعدة مما تهضمه، والأمعاء الغليظة مما تدفعه وتخرجه، وكأنها وليمة فاخرة مبهجة.. ومكافأة له على حسن تقبله لعطاياها كانت "جين" تمنح لابنها الأكبر "إميل" رغيفا أسمر محشوا باللحم والخضروات، فيأخذه وعيناه تبرقان جشعًا وفرحًا، ويلتصق بأمه أكثر ويأخذ في تناول طعامه بفرح سرور.. كان هذا فيما يخص "إميل"، أما الولد الثاني "مارسل"، فقد كان الوضع بالنسبة إليه مختلفًا تمامًا.. إنه لم يعد يُسرِع إلى أمه حين يراها قادمة نحوهما، لم يعد يسرع نحوها، ويستخدم حيل الأطفال ومحبتهم الصافية في جلب العطايا المشبعة لنفسه.. إنه لا يكد يراها الآن حتى يهرع مبتعدًا، ويلجأ إلى ركن قصيّ من الكوخ يتسمَّر فيه، ويُبقي عيناه مفتوحتان تراقبان ما يجري حوله، وما تقدمه أمه لأخيه وما تقوله له، لكنه لا يجسر على الاقتراب ولا يُجيب نداءات أمه المتكررة له، ولا يأتي من تلقاء نفسه طالبًا عطاياه المماثلة.. كما لو كان الولد يفقد كل شهية للأكل وكل إحساس غريزي بالجوع بمجرد أن يرى أمه ماثلة أمامه!

صار "مارسل" هدفا لسخرية أخيه وتهكمه جراء سلوكه هذا.. لكن

"جين" بدأت تلاحظ الأمر، وبدأت تشعر بالقلق.. في البداية اعتقدت أن الولد مريض أو متوعك أو يعاني خطبًا ما مع أبيه، الذي تتركه هو وأخيه في رعايته طوال النهار.. طبعًا من المفروغ منه القول أن "دونات" لم يكن يقدم لطفليه أي نوع من الرعاية طوال مدة بقائه المنفردة معهما، فهو يكب على كؤوسه يفرغها في جوفه تباعًا منذ أن تغلق "جين" الباب خلفها صباحًا، وحتى غروب الشمس، وهو الحدث الكوني العظيم الذي كان يؤذن بأن زوجته آتية في الطريق.. ومعها سيجيء التوبيخ والتبكيت والنكد المقيم!

أمر "دونات" لا يعني "جين" الآن؛ إنما كل ما يعنيها حقًّا هو معرفة ما أَلَمَّ بولدها الصغير وجعله يتباعد عنها، ويجْفوها بتلك الطريقة الغريبة.. لم يفكر "إميل" فيما دَهَا أخاه، فالجوع المتواصل وانعدام الأمان، انعدام اليقين بأنك ستحصل على وجبتك التالية حتمًا، يُحول الإنسان، أي إنسان مهما كان بريئًا صافي النية، حتى وإن كان طفلاً لم تتحمل نفسه بنوازع الشر والغيرة، وحب سلب ما في أيدي الغير، إلى كائن شرير.. مُخيف بقدر ما هو خائف، وأناني بقدر ما يتعرض للأنانية

وعدم الاهتمام بشأنه من الغير، ولذلك لم يُثر التغيير الكبير في نفسية الولد الصغير أدنى اهتمام من قبل أخيه الكبير، الذي لم يكن قد تجاوز عامه السابع بعد، لكن "جين" نفسها سرعان ما لاحظت.. ثم سرعان ما فَطِنَت إلى السبب وتحملت نفسها بالرعب والغضب!

*****

فردت لفائف الطعام وأخرجت القليل الذي أحضرته كالعادة، جاء إليها "إميل" يشمشم ككلب مُظهرًا حلقه الأحمر من خلال فمه المفتوح في نَهَمٍ، وكاد لُعَابه يسيل على يدها وهو يختطف رغيفًا محشوًّا بقطع اللحم الرخيص المسلوق.. كان الخبز من دقيق رديء، وكذلك اللحم كان مطهوًّا بطريقة بدائية سيئة، لكن ذائقة الأولاد الجائعين لا تُميز بين طعام رديء وآخر جيد، إن أباهما يتركهما طوال النهار دون طعام، وهي تعلم ذلك، لهذا كانت تتعمد أن تقدم الطعام كله للولدين وتختصهما به.. كان ذلك يثير حفيظة "دونات" وكان، في الأحيان القليلة التي يتجرأ على مواجهة "جين"، بعد التغير المخيف الذي اعتراها وجعل حتى ملامح وجهها تتغير

وتتبدل، يرغي ويزبد ويلقي جُمَلاً قصيرة مبتورة تعبر عن ضيقه وتبرمه بما يحدث.. لكن الزوجة، التي لم يعد يعنيها من أمره شيئًا الآن، كانت ترد عليه بهدوء مُتحفز مسموم:

- "على من يريد أن يأكل أن يعمل بيديه.. الطعام لا يُمنح مجانًا إلا للصغار أو للعجزة!"

ومن جانبه لم يكن الزوج العاطل يُثرثر كثيرًا مدافعًا عن حقه، أو يتعمد الدخول في شجار، لكنه كان يفعل كما يفعل أي كلب عجوز وقور عاجز عن اصطياد طعامه بنفسه.. ينتظر الفتات المتساقط من مائدة أربابه! كان الأب ينتظر فراغ الطفلين من طعامهما، لتأكل "جين" بعدهما، وفي النهاية دائما كان يتبقى له ما يسد رمقه به.. إنه يرضى بهذا طالما يضمن أن يرقد على الحشية المتسخة ببطن ممتلئة بالطعام وبرأس مليء بأبخرة النبيذ!

لم يعد شيء الآن يشغل "جين" سوى ردود أفعال ولدها "مارسل" نحوها.. إن الولد يكرهها ويجفوها، ويتحاشاها متعمدًا.. لم يُثر الأمر انتباه أبيه أو اهتمامه، ولم يكن إلا مدعاة للسخرية من أخيه، لكنها

فهمت كل شيء، وأدركته من نظرة واحدة حادة ألقتها على عينيه الصغيرتين المختبئتين تحت حاجبين ثقيلين شبه مقفلين، وحاجبين كثَّين عريضين.. وفي تلك الليلة عندما فرشت الطعام على الأرض دعته ليأتي ويأخذ نصيبه من العشاء، لكنه تجاهلها وذهب ليجلس بعيدا متظاهرا بأنه لم يسمع شيئًا:

- "تعالي أيها الولد لتأكل.. سيفرغ الطعام ولن يتبقى شيء إلى الصباح!"

كررت أمرها له بالاقتراب، لكن الولد زامَ مُردِدًا كلمات مبهمة، ولجأ إلى المزيد من التباعد.. حين ذلك اتجهت "جين" إليه بجسدها كله، وركزت عينيها عليه.. رمقته بنظرة فاحصة، وأمسكت عيناها الخبيرة بعينيه الصغيرتين شبه المُقفلتين.. بدا أن الولد يحاول أن يختبئ منها تحت جفنيه، اللذين أغلقهما نصف إغلاق متناومًا مُدِّعيًا النّعاس، لكن نظراته لم تغب عن فطنتها.. ارتجفت فجأة وهي تتطلع إلى مساحة بيضاء في عينيّ صغيرها وأدركت، في لحظة، أنه رأى وعرف كل شيء.. كل شيء لتعاسة حظها وحظه أيضًا!

(٦)

في صباح باريسي دافئ غادرت "جورجيت"، الشابة الرقيقة التي تكافح كالرجال وتعمل في مصنع للثياب، لكي تشارك زوجها في مسئوليات البيت المادية، كما تعودت أن تشاركه كل شيء يدًا بيد، منزلها الصغير المرتب جيدا لتقوم برحلة قصيرة إلى ضاحية من أجمل ضواحي باريس، وأكثرها صخبًا بحركة المتنزهين والمُرفهين المرتحلين في شوارعها وغاباتها الهادئة الجميلة.. خرجت لتحتفل بيوم عطلتها وبشبابها وبصحتها، وبما تتمتع به من مركز اجتماعي معقول، ونقود تكفيها وتزيد لتدفع منها ثمن رعاية طفلتيها الجميلتين.. تدفع نقودًا لمن تعدها أختها لكي تساعدها على قضاء التزاماتها والوفاء بها.

كانت "جورجيت" قد استأجرت "جين" لتكون راعية لطفلتيها، مقابل أن ترعى هي ولديها بدورها؛ لكن بنقودها التي تفيئُها عليها، وعليهما

من مالها الخاص الذي، في كل الأحوال، ليس بالكثير.. لم تدرك "جين" أن أخت زوجها كانت تقوم بعمل خير لها في الأصل، وأن حاجتها لجليسة أطفال لم تكن ملحة أو شديدة للدرجة التي تتخيلها.. لكن "جين" لم تكن تفكر بالأمر، إنها من ذلك الصنف من البشر الذين يولدون بكافة المسائل محسومة في داخل رؤوسهم، ليسوا بحاجة إلى أن يسألوا أحدًا، أو يستشيروا إنسانًا، أو يطلبوا رأي معلم، أو ينتظروا صكًّا من رجل دين، ليسوا بحاجة لشيء من كل هذا ليبرر لهم ويسوغ أفعالهم أو يمنعها.. إنهم هم أنفسهم المبرر الذي يبحثون عنه، وعقولهم تحوي إجابات لكل شيء، وتقدم لكل موقف وصفًا خاصًّا تنتزعه من أعماقها المظلمة التي لا سبيل للوصول إليها..

وفي تلك الأعماق المظلمة الخاصة ب"جوان ويبر" استقرت فكرة واحدة.. أن أخت زوجها كانت تستأجرها لتجعل منها خادمة لابنتيها، تستذلها بمالها، بفرنكاتها القليلة التي لا تغني، في الظروف العادية، عائلة ولا تسمنها من جوع، ولا تسد رمقها.. لكنها بخستها أجرها لأنها تعلم أنها محتاجة، وأن يدها خاوية، وأن طفليها جائعين، وأن بطنها وبطون

أطفالها خالية، وأمعائهم تقرقر من الجوع.. الفراغ الذي تركه أخاها العاطل خاويا بتبطله وفقره وسكره حاولت هي، الأخت، ملأه بالقليل من المال.. أكانت تستأجر عرق زوجة أخيها لتكافئها على صبرها على معاشرة أخيها الحقير أم لتعاقبها على ذلك؟!

وفي كل الحالات فإن أمًّ كتلك لا يجب أن تَبقى طفلتين بريئتين في حوزتها وتحت رعايتها لتنشئهما على فكرها المنحرف!

نعم..

بدت "جورجيت"، بالقدر البسيط من السعادة الذي تمتلكه، وبما تتحكم فيه من مال كاف لكي تسيطر على مصير عائلة أخيها، وتقرر ما إذا كانوا سيحصلون على عشاء الليلة أم سيبيتون ببطون فارغة، وبإهمالها لرعاية ابنتيها، أُمًّا فاسدة منحرفة لا تستحق طفلتين بريئتين مثل "سوزان" و"جورجيت" الصغيرة.. ومن الخطأ تركهما لينشئَا في حضنها أو تحت توجيهها!

كم أحبتها البنتان وكم أحبتهما بدورها.. إنها تحبهما إلى درجة إنها لا تريد لهما أن يتعذبا أو يُعانيا.. "جورجيت" مريضة، "جورجيت"

المسكينة تعاني الحمى والالتهاب، ويتقد جسدها من الحرارة، وحنجرتها متورمة.. ما أجدرها بأن تُمنح الراحة والشفاء الكامل النهائي!

وفي خطين متوازيين سار كل شيء..

فعلي اليمين كانت "جورجيت" الأم هناك في (سان أوان) تمرح بين رفاقها، بثوبها الملون الزاهي حسن التفصيل، وبقبَّعتها الصغيرة الأنيقة، وبفرحة قلبها المتجددة، وتنشد معهم نشيدًا مرحًا بينما زورق كبير، استأجروه من مطعم ينوون أن يتناولوا عشائهم فيه بعد قليل، يمخر بهم عباب السين الهادئ، ليتمتعوا بيوم صاف طيب الهواء يُنسيهم الشتاء البارد المقبل، وتقلب جو باريس الذي اعتادوه.. في نفس تلك اللحظات كانت أمورا مشابهة تجري في بيت "جورجيت" الصغير الواقع في حي (مونمارتر) العتيق.. كانت "جورجيت" الصغيرة أيضًا تمرح بطريقتها الخاصة، وتستعد لحفلتها الكبرى في الجنة.. كانت بين يدي مربيتها وراعيتها في تلك اللحظات، أخرجتها "جين" من فراشها، وبدلت لها ثيابها، ثم حملتها برفق بين ذراعيها، وراحت تغني لها أغنية مهد منومة.. كانت الطفلة بين النوم واليقظة توالي فتح عينيها وإغلاقهما،

جرعة الدواء كانت تؤمن لها نومًا عميقًا هادئًا، لكن مربيتها وراعيتها لم تعطها إياها الساعة تحديدًا، لقد أرادت أن تقضي الطفلة وقتها بدون مرارة الدواء وحرقته مثلما أرادت لها حظًّا سعيدًا بعيدًا عن كافة تلك المتاعب وكل هذا الشقاء.. وبينما هي تراوح بين النوم واليقظة زحفت "سوزان" الصغيرة من فراشها، وجاءت لتلقي نظرة على أختها.. كانت الأخت الأكبر لا تزال بحنجرة مقفلة تحاول فتحها بجهدها الصغير المضحك، لم تكن تنطق سوى بضع كلمات بعد وتتلعثم في نطقها، وتتوقف في وسط الكلمة والشك يلوح في عينيها.. أتُرى الآخرين يفهمون ما تقول أم لا؟!

وبتلك الرطانة البدائية جاءت لتقول لعمتها، ومربيتها هي وأختها، بينما لا زال الوخم يلوح في عينيها الصافيتين الكبيرتين:

" خالتي.. "جونا".. "جونا".. "جورا" نائمة؟!"

كانت "سوزان" تسمي كل شيء بلغتها الخاصة، وتخترع له اسما سهلا يسيرا على لسانها، حتى كلمة (خالتي) نطقتها خاطئة تمامًا ومدغومة الحروف، لكن "جين" فهمت كل ما ترمي الفتاة الصغيرة لقوله وأدركته

بوضوح.. لم يكن عقل "جين" صافيًا رائقًا، كماء مطر نظيف منهمر تساقط وتجمع في إناء من البلور الشفاف، كهذه اللحظة من قبل.. احتشدت نفسها باليقين، وامتلأت روحها بتقارير واقعية، صادرة من خيالها وحده أو من ملاحظات عابرة غير متعمقة، عن أطفال يشّقون ويتعبُون ويعانُون بلا طائل، عن مخلوقات صغيرة جيء بها إلى هذا العالم دون أخذ رأيها، وسيُلقَى بها في صناديق وتوابيت ضيقة مقفلة، آخر المطاف، دون استئذانها أيضًا.. عن لحظات ألم وشقاء ومعاناة، عن لحظات جوع، آلام وأوجاع الحياة، وأوجاع الموت، لحظات ألم ومرض لا آخر لها، ولا غاية من خلفها.. لماذا خلقنا الله في تلك الحياة؟!

لماذا خلقها هي، "جين"، تحديدا في هذه الحياة.. إنها لم تستطع أن تفهم لوجودها معنى منذ أن تفتحت عيناها على الظلام الذي يحيط بها.. لم تبصر النور حتما، بل أول ما رأته عيناها كان الظلام والقهر، وهما أول ما وقعت عليهما عيناها.. منذ أن خرجت من الرحم وسط صرخات البحر ورزقه المضنون به على الصيادين الفقراء المعوزين في تلك القرية النائية، لماذا يكون البحر ضنينًا على من يريدون انتزاع

الرزق من أحشائه، بينما يمد يديه بسخاء للباحثين عن اللؤلؤ والترف والرفاهية.. لم تتوقف يومًا عن تذوق الطعم المرير في حلقها!

لم تعرف من أين يأتي هذا الطعم الغريب المستقر دومًا في قعْر حلقها، لكنه كان دومًا هناك.. آتي معها وهي مشحونة وسط الأجساد البشرية المتلاحمة في تلك العربة المتهالكة التي حملتها وهي ابنة الأربعة عشرة عامًا الغضة، مثلما حملت كثيرًا من أهل قريتها، المهاجرين إلى باريس.. وباريس كيف تلقتهم؟!

لقد أشاحت بوجهها عنهم، وتركتهم يحيون حياة الكلاب.. حياة الكلاب يختارها البعض بإرادتهم الحرة العرجاء مثلما حدثوها في تلك المدرسة الليلية التي لم تمكث بها إلا أقل من أسبوع، قالوا لها إن هناك فيلسوفًا قديمًا في بلاد اليونان اختار حياة الكلاب، وفضلها على حياة البشر.. إنه حر فيما يختاره لنفسه لكنها، وكما تذكر جيدًا، فإنها لم تخترْ لنفسها تلك الحياة، ولا تظن أن أحدًا كان ينتظر رأيها في ذلك الشأن!

الطعم المرير في حلقها عاد ثانية، أكانت تُسْرف في الشراب لتتناساه، أتزوجت ذلك السكير الحقير لتعب معه كؤوس الخمر لتتناساها، أتراها

كانت تصنع خمرها حامضًا مريرًا رغم أنفها لأنها لا تستطيع أبدًا أن تصنع حلوًا سائغًا، والمرارة تسكن حلقها وتُهيمن علي روحها؟!

*****

انتفضت "جورجيت" منتبهة في تلك اللحظة، ارتعشت الفتاة رعشة خفيفة ثم تنهدت بعمق، وشرعت تفتح عيناها برفق.. كانت ثمة هالات سوداء خفيفة حول العينين الصغيرتين الجميلتين، و"سوزان" بدورها كانت واقفة هناك وسؤالها معلقٌ لا زال بحاجة إلى إجابة:

- """جورا "نائمة؟!"

"جورا"، "جورجيت" الصغيرة كما تطلق عليها أختها الأكبر قليلاً، هل هي نائمة؟!

ربما كانت منذ بضع دقائق كذلك.. لكنها الآن مستيقظة تمامًا، وعيناها مفتوحتان تحدقان بلا خوف ولا وجل في وجه مربيتها المتقلص.. كانت الطفلة تحدق في الوجه الملتوي بثبات ورسوخ.. شعرت "جين" أن خلف نظرات الرضيعة امرأة ناضجة تفهم تمامًا ما يجري حولها، وما يوشك

أن يجري أيضًا، بلا اهتمام.. بل بسخرية وتهكم كاملين!

ارتجفت "جين" حينما حدَّقت الطفلة في وجهها.. واجهتها بعينين ثابتتين قويتان بنظرة لا تَحيد ولا تخشى شيئًا.. كم تعذبت "جين" تحت وقع أنظار البنت القوية المخيفة!

الغريب أن "جين" هي التي شعرت بالخوف من نظرات البنت الصغيرة وليس العكس.. دبَّ الخوف في قلبها، ووجدت روحها تتقلَّص في بشاعة، وتُضمر داخل جلدها.. هاتين العينان.. هاتين العينان قادرتان على أن تطارداها إلى آخر لحظة من عمرها.. إن البنت تمد وتدًا من نارٍ من عينيها المسترخيتين وتغرسه في صدر "جين"، وتطعن به روحها حتى تتسلخ وتتساقط فُتاتًا محترقًا متناثرًا!

إن فتاة تملك نظرة كتلك، تملك عينين قادرتين على الحرْق كهاتين، لجديرةٌ بأن تموت.. نعم يجب أن تموت لتستريح روح "جين" وتلتئم جروحها وتطيب حروقها!

التشوُّه.. إنها تخشى التشوه؛ فكم قيل لها إنها قبيحة وإن ملامحها مثيرة للشؤم!

إنها خيط طويل من الشؤم خرج من رحم أمها ذات صباح كئيب غائم، ولا زال يواصل الجر حتى تلك اللحظة!

فليتوقف هذا.. نعم فليتوقف كل هذا والآن!

ليس بوسعها أن تتحمل عينان تقْدحانِها شررًا مرة أخرى.. يكفيها عينا "سيلستين" اللتين لا تزالان تطاردانها حتى اللحظة.. يكفيها عيني ولدها "مارسل"، الذي رأى خلسة ودون علمها، كل شيء وشهده بعينيه!

تُرى لماذا يسلطون كلهم أعينهم عليها.. حتى أخت زوجها لم تكن تُكلمها أو تُوجه إليها أمرًا دون أن تتفحصها بثبات وتسلط عليها سهام عينيها.. لمَ يحاربونها كلهم ويكرهونها؟!

أي شيء جنتّه.. أي خطأ اقترفته في يوم بعيد؛ ولا تزال مُطالبة بالتكفير عنه حتى آخر لحظة في حياتها؟!

ليتوقف كل هذا الآن.. ولتتوقف "جورجيت" الصغيرة عن رمْيها بسهام النظرات الفاحصة المرعبة.. حررت ذيلَ ثوبها من يدي "سوزان"، التي تشدها بيديها الصغيرتين محاولة جذب انتباهها إليها، والحصول على جواب على السؤال الذي ألقته عليها مرتين دون أن تعني الأخرى بالرد

عليها: هل أختها الصغيرة مستيقظة!

نعم يا "سوزان".. إن الرضيعة مستيقظة.. للمرة الأخيرة هي كذلك!

(٧)

تصببت عرقًا وتقلبت على جانبها الآخر.. كانت تركض مبتعدة بكل طاقتها لكن (الشيء) العملاق كان يُطاردها بلا كلل ولا توقف..

بدأت المطاردة من عند شاطئ النهر.. كانت تقف حقيقة على شاطئ السين، الذي كان يجري قذرًا مغبرًا مليئًا بالقاذروات، وفوقه تهيمن طبقة سميكة من الضباب الموحش.. امتلأت نفس "جين" بالوحشة والشعور بالبرودة والوحدة.. فجأة وجدت المنظر قد انتقل إلى مقبرة (مونبارناس)، كانت تذرع الدور العلوي من المقبرة الجنوبية الكبيرة المليئة بأجداث العظماء والمشاهير، كانت القبور الرخامية تحيط بها من كل جانب، وكانت كلها مقفلة بالسلاسل الضخمة، عدا قبرًا واحدًا كان مفتوحًا تحيط به أكوام من التراب الأحمر، كان القبر قيد الحفر، ولا

زالوا يعملون عليه كما يظهر..

شعرت "جين" بقليل من الخوف؛ لكن قدماها دفعتاها للاقتراب، كانت قدميها تقودانها وليست هي التي تفعل، مشت بها قدميها إلى مشارف الأكوام الترابية المحيطة بالقبر الجديد الذي لم يفرغ العمل عليه بعد.. كل شيء كان يدفعها دفعا للاقتراب، وبالقرب منه استقرت، وجدت شاهدًا عملاقًا مثبتًا فوقه، شاهدًا لم تر أكبر منه في حياتها، ولا يوجد في كل المقابر المتناثرة على أديم (مونبارناس) ما يُضارعه ضخامة وارتفاعًا.. كانت ثمة كلمات مخطوطة بثقة وهدوء على هذا الشاهد الغريب.. كلمات بحروف لاتينية، لكن "جين" التي لم تكن تعرف قراءة لغتها الفرنسية نفسها، تمكنت من قراءتها بسهولة تامة.. بدت تلك الكلمات كما لو كانت قد كُتبت من أجلها.. وهي كذلك بالفعل.. تحت رسمٍ غريبٍ لامرأة شعرها على هيئة ثعابين ملتفة ضخمة متداخلة، كان صليبٌ عملاقٌ أسفله تضرع يائس يقول:

artson seps acinu O ....mecap xurc O

(أيها الصليب.. سلامًا.. يا أملنا الوحيد)

ارتعدت "جين" حينما تكشفت معاني الجملة من تلك الكلمات، التي بدت لها محملة بأقصى معاني اليأس والقنوط.. شعرت بأنها ترغب أن تصلِّب (ترسم علامة الصليب)، وأن تركع مؤدية صلاتها، لكن قوة هائلة جمَّدت يديها وشلَّت رُكبتيها، فلم تستطع أن تركع أو تجثو، ثم تكشَّفَ لعينيها الاسم المحفور على شاهد القبر، وكان الاسم لشدة الغرابة محفورًا حفرًا غائرًا قاسيًا في بطن الحجر، خلافًا لبقية الكلام الذي كان منقوشًا بخطٍّ جميلٍ مميزٍ على الوجه الأملس.. كانت الحروف منحوتة بقسوة وبيدٍ قبيحة لا تعرف للفن ولا لجمال الخط معنى.. حتى "جين" الأمية عرفت أنه خط رديء للغاية، وأن كاتبه قبيح النفس والروح، ولعله مسخ مشوه مخيف كحروفه الملعونة المنحوتة المشوهة..

كانت الحروف تقول بوضوح:

" جوان ويبر " منقذة أطفال باريس.. ٧ أكتوبر ٤٧٨١ ـــــ ٥ يوليو...)

ثم نقاط فارغة، نقاط مخدوشة ومطموسة، ثمة من طمس تاريخ موتها، وغمض الأمر عليها لئلا تعرف متى ستموت.. أو متى ماتت بالفعل!

هل هي ميتة الآن؟!

سرت رعدة البرودة في قلب "جين".. تطلعت إلى بقايا الطاحونة التي تقع خلف المقبرة وارتعشت حينما رأت النباتات المتسلقة التي غطَّت بقايا المبنى العتيق المهدم.. ستسلق النباتات الخضراء المُزعجة القبيحة قبرها، وتخنق أنفاسها.. سوف تتسلل إلى داخل قبرها وتلتف حول عنقها وتخنقها حتى الموت.. ستقتلها رغم أنها ميتة فعلاً.. لكن القدر كان قد حدد لها عقابًا فريدًا من نوعه.. سوف تبقى ميتة / حية إلى الأبد، وسوف ترقد في قبرها مغطاة بالأكفان، لكن نسمة الروح لن تفارقها، وستظل النباتات المتسلقة تخنقها وتخنقها كل يوم، وهي تموت ولا تموت، وتتحلل ولا تتحلل، ويُمحى اسمها ويظل باقيًا أبدًا..

"جوان ويبر" منقذة الأطفال.. ليس لقبًا سيئًا على الإطلاق.. لكن هل تراها تستحقه؟!

عندئذ برزت العينان لتحدّقا فيها، خرجتا من قعر القبر المحفور، وتجاوزتا أكوام الأتربة المرتفعة وارتفعتا أمامها في الهواء حتى كادتا تُحلقان في السماء.. عينان كبيرتان محمرتان تقْدحان الشرر، وتحيط بهما هالات سوداء كثيفة متراكمة فوق بعضها.. لا جفون فوقهما ولا

بشرة تحيط بهما، ولا وجهًا يتصل بهما، فقط مقلتين عاريتين هائلتين تسلطان عليها النظرات التي تقدح النار، وتطلق الحرارة الحمراء أمواجًا في اتجاهها.. ذعرت "جين" ولم تشعر بنفسها إلا وهي تركض هاربة لا تلوي على شيء.. إنها تريد الهرب حتى القبر بشاهده العملاق وبجمال عبارته المشجعة لروحها لم يعد يستهويها ولا يستبْقيها.. إنها تريد الهرب ولا شيء سوى الهرب!

أخذت تجري في اتجاهات متعددة على غير هُدى.. لا تعرف أين تريد الذهاب، لكنها تعرف أنها تريد الهرب وحسب.. لكن العينان راحتا تطاردانها.. لم تتركاها تفر، بل لحقتا بها.. وكلما استدارت لتلقي نظرة على ما خلفها لاهثة وجدتهما هناك.. سرت السخونة في دمها وارتفعت حرارة رأسها، تفصَّدت عرقًا بينما شعرت ببرودة الثلج في يديها وساقيها.. نصف حارة نصف باردة أخذت تعدو عبر ممرات (مونبارناس) الملتوية المتشابكة، والعيون النارية خلفها تطاردها بإصرار..

أخيرًا صارت خارج حدود المقبرة.. وجدت نفسها تعبر بوابة حجرية

عملاقة تُفضي إلى فراغ هائل مخيف، فراغ كونيّ لم يكن يوجد به أي معالم، الغريب في الأمر أن البوابة الحجرية الضخمة كانت قائمة في الخلاء، في الفراغ، بلا شيء خلفها أو شيء أمامها.. وتلاشت كافة المناظر التي رأتها "جين"، وكل الأماكن المُرعبة التي مرت خلالها.. فراغ أصفر مليء بالصمت والسكون.. لكن العينان المخيفتان قد اختفتا، وهذا حسن جدًّا في عينيها!

ورغم أنها بوابة حارسة على لا شيء، إلا أنها لم تكن غفلاً من الزينة.. فلقد نُقِّشت فوقها وجوهًا عديدة متقاربة.. وجوهًا بملامح بشعة وبأعين بارزة، وأفواه ضخمة فاغرة، وبملامح متقلصة تصرخ في رعب.. كانت وجوهًا شيطانية، وللمرة الثانية امتلأت نفس "جين" بالرعب والهلع!

بودها أن تهرب ثانية.. لكن إلى أين تتجه تلك المرة.. لا شيء تلوذ به هنا، والفراغ الشاسع حولها لا يُفضي إلى أي مكان تختبئ فيه..

وما أن شعرت بالحصار، وتحملت نفسها بالاستسلام اليائس حتى برزت لها العينان المكشوفتان مرة أخرى، برزتا فجأة من وسط الأوجه الشائهة المنقوشة على الجدار وخرجتا من بينها، أزتا كجرادات ضخمة وهجمتا

على وجهها مباشرة.. أخذت "جين" تزودهما عن وجهها وجلدها بيديها وهي تشعر بأن كل عضلة في جسدها قد تصلبت وتيبست.. لم تعد قادرة على تحريك خلجة واحدة من خلجاتها.. لكن العينان لم ترحماها، بل هاجمتاها بقسوة وعنف.. أخذتا تطعناها بعنف في مختلف أنحاء جسدها.. سال الدم على يدي "جين"، لكنه كان دما غليظا له رائحة مُنفرة قوية، ولون أسود غارق في السواد.. لم تجد وقتا لتتعجب أو تندهش.. فقط كان كل ما يعنيها هو أن تحمي جسدها من مزيد من الطعنات الغادرة من العينان القاسيتان الساحقتان.. إلا أن عينيها التقطتا المنظر الأكثر إثارة للعجب والدهشة.. لقد كان وجهها، وجهها هي بكل ما تعرفه وما تحفظه من ملامحه، منقوشًا على البوابة بين الوجوه القبيحة المشوهة الأخرى.. لا لم تكن هناك وجوهٌ أخرى.. إنها كلها لها.. نسخ لا حصر منها هي، من وجهها، تُزين البوابة العملاقة وتُشوه أديمها الحجري بملامح أول مرة تعرف "جوان" أنها تمتلكها.. أتلك الملامح لها حقًّا؟!

إنها تشعر الآن بالخوف من نفسها.. تخشى نفسها أكثر حتى مما تخشى

ضربات وطعنات العينين الحمراوتين المخيفتين.. ألها تلك الملامح المخيفة حقًّا؟!

بيدين ملطختين بالدم الأسود، الذي سال من جروحها، رفعت يديها، وأخذت تمررها على وجهها.. تتحسس ملامحها.. إنها تشعر أنها لا تعرف نفسها.. إنها بحاجة إلى مرآة لكي تعيد النظر في وجهها.. إنها بحاجة إلى أن تعيد النظر في أشياء كثيرة؛ أولهم نفسها!

لكن لا.. إنها ليست بحاجة إلى إعادة النظر في أي شيء.. إنها على صواب.. لم تخطئ في شيء، ولم تقترف إثمًا في حق أحد.. حينئذٍ وجدت نفسها قادرة على أن تجثو وتركع لتصلي.. فارقتها العينان حتى حين، لكنها لم تعد تبالي بما تُطلقانه من شرر، ونظرات حارقة عليها، أو بما ينالان ويطعنان من جسدها.. جثت وأرادت أن تردد العبارة التي كانت على الصليب الحجري في مقبرة (مونبارناس).. أرادت أن تصرخ بيأسٍ مُحمل بالرجاء:

(أيها الصليب.. سلامًا.. يا أملنا الوحيد)

لكنها وجدت نفسها تقول كلامًا مختلفًا تمامًا.. لم تأخذ وقتا طويلا حتى استطاعت أن تضبط نفسها وهي تغني!

نعم كانت تغني مرددة كلمات كانت تعرفها جيدًا.. كلمات حفظتها ورددتها منذ صغرها في قريتها التي غادرتها هاربة، وحتى في باريس كانت كلماتها تملأ الشوارع ويرددها جميع الأطفال:

تحت ضوء القمر،

صديقي بييرو

أعرني ريشتك

لأكتب كلمة

فشمعتي قد ماتت

وما عاد لديّ نور

افتح لي بابك

محبة في اللّه

تحت ضوء القمر

أجاب بييرو:

ليست لديّ ريشة

أنا في سريري

اذهب عند الجارة

فربما يكون لديها

لأن في مطبخها

هناك من يشعل ولاعة

تحت ضوء القمر،

لوبين المحبوب.

دق عند السمراء،

فاستجابت فجأة:

من يدق هكذا

فقال بدوره:

افتح لي بابك

لإله الحب

تحت ضوء القمر

لا نرى إلا قليلاً.

بحث عن ريشة

بحث عن نور

بحث بهذه الطريقة

لا أعرف ماذا وجد

لكنني أعرف أن الباب

خلفهم قد أغلق !!

" أعرف أن الباب خلفي قد أغلق!"

غنت "جين" ما شاء لها الغناء حتى انتهت كلمات الأغنية، توقف اللحن الذي كان يدوي في رأسها بوضوح تام.. فشلت في أن تردد الصلاة لكنها نجحت في أن تغني.. ستكون تلك الأغنية صلاتها من الآن فصاعدا!

ليست بحاجة إلى الصلاة، ليست بحاجة إلى الرب.. فقد تركها الرب عندما كانت تحتاجه وهذا دورها الآن لتتركه!

لم تفعل شيئًا خاطئًا، بل اختارت الطريق الصواب.. عادت العينان لتهاجمها لكنها ردت هجومهما بشجاعة.. وقفت وأخذ تضرب.. تضرب وتضرب في العدو الذي يحاول الفتك بها.. الجميع يحاول الفتك بها.. فلتقتلهم هي أولاً!

نعم.. ليس عيبًا أن تدافع عن نفسك؛ فهم من بدءوا بالعداوة، وهم من بدءوا بالهجوم عليها..

أغمضت عينيها وأخذت تضرب وتضرب.. لاذت بقوتها لتحميها مما يظنه الآخرون ضعفًا بها.. اتخذت قرارها وما من أحد بقادرٍ على أن يزحزحها بعيدًا عنه.. ضربت وضربت حتى كلَّت يداها.. وانتصرت!

انفجرت العينان الكبيرتان بدويٍّ هائل، وتناثر رذاذ دمائهما ليُلطخ ثيابها.. وقفت كجندي شجاع يلطخ دم أعدائه درعه البراق!

ستجمع دماء الأعداء كتذكار انتصار، وستتعطر بأريج أنفاسهم اللاهثة المتهدجة ساعة الموت.. أخيرًا رقد العدو ميتًا عند قدميها.. وظهر جفن

هائل ليغطي العيون القبيحة الميتة.. دوت شهقة رعبٍ سمعتها بوضوح ففتحت عينيها.. كانت أشيائها القبيحة المعتادة تحيط بها.. أشياء حياتها البائسة في كوخها البالي الحقير.. وعلى مسافة قريبة وقف بكرها "إميل" ينظر إليها برعب، وهو يكتم فمه براحتي يداه.. بينما تمدد ولدها "مارسل" عند قدميها بعينين جاحظتين، وقد تراجعت جفونها الرقيقة إلى الخلف.. وعلى عنقه كانت علامات حمراء بارزة لأصابع قاسية خنقت الغلام حتى الموت، وانتزعت منه الحياة.. وعلى يدي "جين" لم تكن ثمة دماء.. لقد تعلمت أن تقتل دون أن تسيل دماء العدو.. فلا تريد أن تلطخ الدماء درعها البراق أو تفسد هندامها!

(٨)

تقاطرت الدموع من عينيها بلا توقف.. أفحمت في البكاء حتى أشفق عليها جميع من حولها.. كانت "جين" راكعة على ركبتيها بالقرب من فراش استلقى عليه جسد صغير ساكن، تبكي وتولول دون توقف منذ وقت طويل.. وخلفها كانت نسيبتها وأخت زوجها الشابة "جورجيت" منتصبة متخشبة كوتد خشبي أكلته الأرضة، وأوشك أن ينقصف ويتحطم متساقطًا فتاتًا على الأرض.. وهي ترمق بعيون مفزوعة جثة ابنتها الصغيرة "جورجيت"!

اهتزت مشاعر الأم اهتزازًا عنيفًا منذ أن عادت في منتصف ليلة الأحد من رحلتها المرحة الصاخبة إلى (سان أوان) لتجد طفلتها، التي تركتها مريضة معتلة، ترقد جسدًا باردًا شاحبًا بلا حياة.. لقد ماتت الطفلة في

منتصف الظهيرة تقريبًا، عانت من ارتفاع شديد مفاجئ في الحرارة، ولم تفلح الكمادات الباردة التي أعدتها لها مربيتها "جين"، ولا جرعات الدواء خافض الحرارة المتكررة التي سقتها لها في إنقاذها من الارتفاع الجنوني المتواصل في الحرارة:

- "أصبحت البنت كقطعة خبز محمصة في الفرن.. نعم كانت تتشنج كأنها موضوعة في الفرن.. الصغيرة.. الصغيرة المسكينة!"

رددت "جين" وسط شهقاتها المرتاعة، ودموعها المنسابة بغزارة كالمطر.. بينما وقفت الأم الشابة عاجزة حتى عن إدرار الدموع أو إطلاق عبارات التفجع والحسرة.. إنها لا تكاد تصدق أن هذا يمكن أن يحدث! لم يستوعب عقلها الهائم في رعبٍ أن هذا حدث فعلاً، وانتهى الأمر.. كانت تحدق في جسد ابنتها البارد الأبيض كالثلج، وهي تظن أن في الأمر خدعة ما.. ستنهض "جورجيت" الصغيرة الآن، ستحرك قدمها أو تضرب بيديها الصغيرتين الهواء حولها في نزق كما كانت تفعل دائمًا، سوف تصحو الآن من نومها.. من رُقادها البارد الطويل.. لا يمكن أن يحدث هذا.. لا يمكن أن يسمح الله بحدوث هذا أبدًا!

زحفت "سوزان" بساقين ثقيلتين، والتصقت بذيل ثوب أمها.. تشبثت به بقوة وسحبت الثوب الطويل، واختفت في طيات القماش حتى لم يكد يظهر منها شيء.. كانت عينا "جين" تراقبانها رغم انشغالها بالبكاء الغزير والولْولة.. أما الطبيب العجوز فلم يعد لديه ما يمكن أن يفعله.. لقد انتهى كل شيء!

كان الطبيب هو الذي تولي علاج الصغيرة من نوبة السخونة، وارتفاع درجات الحرارة المتكررة الأخيرة، لم يكن طبيب أطفال متخصص، لكن الأم كانت تثق به أيما ثقة، ولديها قناعة كاملة في قدراته العلمية والطبية.. وقد كان الرجل، في واقع الأمر، أكثر براعة من أي طبيب متخصص في علاج الأطفال، وقد أثبت مرارًا أن حسن ظن الأم الشديد به لم يُجانبْه الصواب أبدًا.. لكن ما حدث تلك المرة كان مفاجئًا للجميع، وأولهم الطبيب المخضرم نفسه.. فلم تكن حالة البنت "جورجيت" متوقعًا لها أن تتطور وتفضي إلى تلك النهاية القاصمة السريعة.. الموت في خلال لحظات قليلة!

كانت البنت مُسجاة فوق فراش أمها، ومُغطاة من قمة رأسها حتى

أسفل قدميها، وملفوفة في شال صوفي ثقيل، دثَّرتها به مربيتها وتركتها في الحجرة وحدها، منذ أن لفظت آخر أنفاسها بين يديها، وبقيت هي برفقة البنت الأكبر "سوزان" جالستين أمام الباب، بانتظار عودة الأم من رحلتها الترفيهية.. أما الأب "جاك" فقد كان يعمل في (فيرنون) ولا سبيل لعودته إلا أن يتلقى التلغراف الذي أرسله إليه شقيق زوجته "دونات"، بعد أن أفاق مضطرًّا من نوبة سكره الأخيرة!

كان كل شي قد انتهى.. لكن لابد من توضيح كل شيء، ومعرفة سبب موت البنت المفاجئ..

وقعت تلك المهمة على عاتق الطبيب العجوز، الذي فحص الجسد البارد بهدوء وسلام نفسي بارد منحته إياه سنوات طويلة من العمل مع المرضى، ومن رؤية الموتى والمُحتضرين.. وبفحص سريع غير متعمق كان قد وصل إلى تشخيص تقريبي لسبب وفاة الرضيعة.. إنها تقلصات معوية حادة وتشنُّجات!

تقلصات وتشنجات!!! ولكن البنت كانت بخير حال حينما تركتها أمها صباحًا.. حقًّا كانت متوعكة وحرارتها أعلى من المعدل الطبيعي، ولديها

تورم طفيف في حنجرتها.. لكن واحدًا من كل تلك الأعراض لم يكن ليُفضي إلى الموت.. إلا أن الطبيب وجد أن ما رآه كان كافيًا جدًّا لإثبات صحة تشخصيه.. فحص بطن البنت وحنجرتها وأطرافها وشرجها.. فحصًا سريعًا متقنًا، والنتيجة لم تكن تقبل في عقله المناقشة.. دموع المُربية وصرخاتها الحادة كانت سببًا في بلبلة وعي الطبيب، وفي زيادة الذعر في نفس الأم الثكلى.. كل من يطلع على هذا المنظر كان حريًّا بأن يظن أن "جين" الصارخة المولولة الحزينة هي أم البنت المتوفاة، وليست أمها الحقيقة الباردة الشاحبة التي كادت تفقد القدرة على النطق من هول الصدمة المفاجئة.. لكن بعض الظن، وأحيانًا أغلبه، هو إثم لا يُغتفر!

وبسبب شدة الحال ووضوح التشخيص في ذهن الطبيب، فقد غفل عن شيء صغير، لم يفحص بدقة أكبر عُنق الفتاة، ولم يسأل من أين جاءت الآثار الحمراء، التي ازرقَّت واسودت مع مرور الوقت، التي لطخت الجسد الناعم البريء!

لم يسأل أحد ولم يهتم بأن يعرف، فقد ماتت البنت فعليًّا.. ماتت بعيدًا

عن عيني أمها وأبيها.. والكلمة الآن هي كلمة الشاهدة الوحيدة، التي رأت كل شيء، وجرى تحت بصرها، وصفت "جين" بدقة ما دهي الفتاة في آخر لحظاتها، ودعم ما قالته نظرية الطبيب.. للأسف فقد كان ثمة شاهد آخر على ما حدث.. لكن لم يهتم أحد بأن يطلب شهادته، كما أنه كان عاجزًا، لشديد الأسف، عن الإفصاح عما رآه بلغة سليمة مفهومة أو عبارات واضحة جلية المعني.. إنها "سوزان"!

لقد رأت البنت وشاهدت بعينيها وانطبع ما رأته في وعيها الصغير.. على صفحة عقلها الأبيض الخالي من كل شيء تقريبًا ارتسم مشهدًا رأته بعينيها، وإن كانت لا تفهم معنى ما رأته، ولا تدرك كيف تعبر عنه أو ترويه.. منظر غريب لمربيتها "جونا" وهي تطبق بيديها على عنق أختها الصغيرة، وتضغط على حنجرتها بقسوة وهي تعض لسانها بجنون، وتكاد الدماء تسيل من عينيها المحمرتين المخيفتين.. ثم الصغيرة وهي تلوذ بالصمت الكامل، وترقد ساكتة تمامًا.. ذهبت إليها "سوزان" وحاولت أن تداعبها وتوقظها من نومها، فقد كانت تحسبها نائمة بعمق فقط، لتلعب معها.. لكن "جين" أبعدتها عنها بهدوء، بعد أن استعادت

منظرها العادي ولون عينيها الطبيعي، وأخبرتها في حبٍّ وتدليل وهي تمنحها حضنًا دافئًا وقبلات على خديها الناعمين المحمرين أن شقيقتها الصغيرة نائمة:

- "إنها مريضة يا "سوزا".. مريضة ويجب أن نتركها لتنام.. سوف نتركها لتنام وقتًا طويلاً جدًّا!"

لم تفهم ذات العامين إلا أن أختها نائمة وحسب.. وبالفعل لم تكذب عليها "جونا" الطيبة الرقيقة الحنون.. فلوقت طويل قادم ستظل "جورجيت" نائمة ومستريحة!

إلا أن "سوزان" لا يجب عليها أن تحزن كثيرًا على أختها.. فقلب "جين" الطيب يعرف أن الحنين قاتل وقاسٍ..

والجنون أيضًا أكثر فتكًا وقسوة!

*****

لم تتخلَّ "جين" عن نسيبتها في تلك الظروف الصعبة.. بل بقيت بجوارها تشدُّ من آزرها، وأخذت توزع رعايتها الدائبة الحنون بالعدل بين "سوزان" الصغيرة وأمها.. أصيبت الأم الشابة بصدمة كافية لمنعها

من النزول إلى العمل بضعة أيام، مُتَّشحة بالسود، مُعتكفة على اجترار أحزانها، صامتة مُنزوية، كان شعور الذنب يملأ نفس "جورجيت" في حقيقة الأمر، وهذا ما أدركته "جين" جيدًا، فعملت جاهدة على استغلال تلك النقطة لصالحها، أسرفت في إشعار نسيبتها أنها غير صالحة لدور الأم، وأنها والدة فاسدة مدللة لا يعنيها سوى نفسها، وليست قادرة على تقديم الرعاية الكافية لأطفال، ولا لتنشئتهم تنشئة صحيحة سليمة.. وأتت جهود "جين" أُكُلها، واقتنعت الأم الثكلى بكل تلك النفثات المسمومة التي كانت مربية طفلتيها تبثها في أذنيها بذكاء ودهاء شديدين.. فتركت "سوزان" تمامًا وبمنتهى البساطة لرعاية زوجة خالها المحبة، المخلصة في أمومتها، والتي تعرف كيف ترعى الأطفال وتُربيهم وتشملهم بعنايتها..

وقفت الأم المحزونة تُشرف من بعيد على الوادي السحيق المقدر لها أن تتردى في قاعه، تاركة أمر "سوزان" ل "جونا" الطيبة التي تحبها تمامًا كما أحبت ابنتها الصغيرة الراحلة "سيلستين".. ولأنها أحبتها كحبها لفتاتها الصغيرة فلم تمض سوى تسعة أيام حتى لاقت "سوزان" حتفها

أيضا!

وُجِدت الصغيرة ميتة باردة شاحبة في فراشها، كان هناك شريط ملون يخص أختها الميتة إلى جوارها، ونظرة استسلام مستقرة في عينيها المفتوحتين.. كانت الطفلة ميتة بسلام تام.. لم تصدق "جورجيت" ما قيل لها، سقطت ببساطة على الأرض، وفقدت وعيها، لا يسرها ولا يشفيها أن توصف به تاركة أمر الكارثة الجديدة ل "جين" لتتصرف بإزائها.. كان الأب لا زال مقيمًا في البيت، وقد تلقى نبأ الصدمة الجديدة بجمود وتجهُّم يليق برجل لم تكن زوجته أو أطفاله يشكلون جزءًا مهمًّا للغاية من حياته.. ببرود تفحص الجسد الميت الصغير، بينما كانت زوجته تهمهم بكلمات غامضة، وهي تبدأ في استعادة وعيها، وأمر المربية باستدعاء الطبيب.. نفس الطبيب مرة أخرى.. وقد جاء الرجل وعلى وجهه نظرة جمود وهلع.. حالتي وفاة في أسرة واحدة خلال أسبوعين.. إنها لعنة أصابت العائلة ولابد.. ونفس الفكرة اقتنعت بها "جورجيت" حينما نهضت من رقدتها وسمعت تشخيص حالة وفاة ابنتها الثانية المفاجئة.. تقلصات وتشنجات!

التقلصات اللعينة مرة أخرى.. لماذا تطاردها التقلصات وتطارد أطفالها؟!

لم تجد "جورجيت" من يمنحها جوابًا كافيًا على سؤالها، فاستدارت إلى القَدَر تتهمه بكل جريرة وترميه بكل نقيصة.. إنها سيئة الحظ، جرثومة، آفة كالآفة الإنجليزية×، لابد أنها حاملة لمرض كامن خطير ينتقل إلى ذريتها بعوامل الوراثة العشوائية العمياء الغبية اللعينة.. مرت أيام مريرة بعد أن وُوريت "سوزان" الصغيرة الثرى، وبقيت الأم تندب حظها بجوار زوجها، الذي ضاق بحزنها وندبها وولولتها المستمرة فاختلق عذرًا عمليًّا طيبًّا بضرورة عودته إلى عمله، ورجع إلى (فيرنون) تاركًا زوجته السيئة، التي مرضت وأصابها الوهن، في رعاية أخيها وزوجته التي لم تفارقها لحظة!

وفي غيبة الزوج وجُهت الضربة الأخيرة لمنزل "جورجيت" ولعائلتها.. فبعد أسابيع من رحيل الزوج ومغادرته للمنزل اكتشفت "جورجيت"، في نوبة وهن وضعف أصابتها، بينما كانت تؤدي عملها الذي عادت إليه بصعوبة بالغة وتحت ضغوط جبارة لا تنتهي، إنها تحمل طفلا جديدا في

أحشائها.. هرعت إلى طبيبها ففحصها ليعلن لها أنها حامل في ثلاثة أشهر تقريبا!

كان الطبيب مبتسما وهو يسوق إليها النبأ ظنا منه أنه سيسعدها، وأن علمها بأنها لا تزال قادرة على إنجاب المزيد من الأطفال، وأن ثمة طفل قادم إليها، وإلي أسرتها، في الطريق سيخفف أحزانها، ويشعرها أن حياتها لم تنتهِ بوفاة طفلتيها الصغيرتين، وأن هناك أمل لا زال ينبض في سماء حياتها الغائمة المظلمة.. أما "جورجيت" فلم تكن توافقه على رأيه هذا بتاتا، فلم تشعر بأي قدر من السعادة لدى علمها بالخبر.. الأصح أنها لم تعرف بمَ تشعر بالضبط.. بل كل ما كان يعتمل في داخلها الصدمة، المفاجأة، شبح من السرور الخافت، وحيرة واضطراب وبلبلة.. لم تكن تستطيع أن تحدد شعورها بالضبط، لذلك هرعت إلى كل من لديها ليحلل معها مشاعرها، ويناقشها بالأمر.. وللأسف إن الثكلى الشابة المضطربة لم يكن لها أحد في تلك المرحلة ليساعدها ويرشدها سوى مربية طفلتيها.. وقاتلتهما!

*****

وهكذا فقدت "جين" وظيفتها، ذهبت إلى بيت "جورجيت" نسيبتها لترعي طفلتين، وغادرته لآخر مرة وهو صامت ساكن، وقد خيَّم عليه الحزن وغشيه الصمت والسكون.. لم تخرج "جين ويبر" من منزل شقيقة زوجها قبل أن تلطخ يداها بأرواح كافية لمزاجها الغريب.. ثلاثة أرواح كانت كافية جدًّا لإشباع رغبتها في الانتقام.. إنها تريد الانتقام من الجميع لكن لأي شيء.. من أجل ماذا؟ قابلت إحسان نسيبتها إليها ببتّر أرواح طفلتيها، وبحرمانها حتى من التعويض الكافي الذي كان آتيًا في الطريق إليها.. تحملت نفسها بالحقد والبغضاء نحو الجميع، إنها تنّقم على الأمهات السعيدات، وعلى الأطفال السعداء الذين يحيون في بيوت سعيدة.. لأنها أم تعيسة وأطفالها تعساء، من بقي منهم على قيد الحياة، وبيتها مليء بالتعاسة، وحياتها كلها عبارة عن خط متصل غير متقطع من التجارب القاسية ومن التعاسة الصافية النقية.. إنها تحس في قرارة نفسها كما لو أن من يمتلكون قدرًا، ولو صغيرا، من السعادة ومن الاكتفاء، ومن الشبع ومن الراحة، من لديهم درجة من الثقة بأنهم سيجدون خبزًا وطعامًا للغد، كل هؤلاء إنما هم لصوص وسراق سلبوا

نصيبها الخاص من كل تلك الأشياء.. إنهم سرقوا ما لديها، ومن حقها بالتالي إن تسرق ما لديهم.. وحبها ل"جورجيت" و"سوزان" وهما حيتين تحول إلى كراهية رهيبة ومقت جنوني بعد أن ماتتا..

لقد ذهبتا إلى المكان الذي أرسلت إليه "سيلستين" حبيبتها من قبل.. لكن ليس لهن الحق في أن يتمتعن بالنعيم الذي ترفل فيه صغيرتها الآن.. فلقد عانت ابنتها، وعاني ابنها "مارسل"، لكن ابنتي نسيبتها لم تعانيا بما يكفي.. لا زال في جعبتها غضب تريد تفريغه وإخراجه على أحد.. غضبها الذي يملأ نفسها ينبغي تصريفه نحو الخارج بدلا من أن يبرعم داخل صدرها ويكتم أنفاسها!

وللمرة الأخيرة ألقت نظرة خاطفة على وجه "جورجيت" الشاحب المتألم وهي تجمع حاجياتها البسيطة، وتغادر البيت الذي صار قبرا لأحيائه كما لأمواته.. لم تلقِ عليها كلمة وداع وذهبت تاركة خلفها جرحا ملوثا بالسم، وقلبا موجوعا..

وذهبت لتفرق غضبها هدايا شيطانية مشئومة على كل من يشاء له حظه، أو يدفعه غبائه، إلى الوقوف بطريقها.. سواء وقف أمامها رأسيا

أم عرضيا؛ فلا فارق عند "جين" بين هذا وذاك.. فهي تعرف كيف تنتقي ضحيتها جيدا، وتختارها بذكاء وحنكة ودهاء كامل!

(٩)

انزوت في ركن من الغرفة منتظرة قدوم الطبيب.. جاء على الأثر طبيب ستيني يبدو على محياه طول المران والخبرة والهدوء السامي المصاحب لرجل عايش الجنون والمجانين حتى تبددت نوازعه ورغباته كلها تقريبًا، ولم يبق في نفسه إلا أمنية واحدة وحيدة.. أن يحتفظ بما تبقى من عقله إلى النهاية!

والهدوء والقراءات الفلسفية المتعمقة والانشغال بتأمل الكون حوله وبالتظاهر بأنه فيلسوف زمانه هم وسائله لتحقيق هدفه السامي هذا، لذلك كانت كتب الفلسفة والتصوُّف الشرقي لا تكاد تفارقه، بالإضافة إلى كتب الطب النفسي والعقلي الكثيرة الضخمة.. كم عرضت عليه

من حالات صعبة ومؤلمة ومثيرة للخوف، وأحيانًا للتقزز والغثيان من فرط ما يظهر على أولئك المرضى من وجع وكرب وخلل نفسي رهيب، يجعلهم يشبهون الحيوانات في سلوكهم أحيانا.. لقد رأى مرضى ينبحون كالكلاب، وآخرون يزحفون على بطونهم والزبد يسيل من بين شفاههم، أو يمشون على أربع معتقدين أنهم قد مُسخوا ذئابا أو تحولوا إلى قطط بشرية ضخمة.. رأى ما رأى من حالات كهذه وأكثر، لكنه لم ير في عمره المهني كله، حالة كتلك التي تُعرض عليه اليوم!

إنه لم ير مريضًا نفسيًّا أو عقليًّا يأتي طالبًا حجزه في المستشفى وعلاجه سوى تلك المرأة الغريبة الأطوار.. لم يكن بها شيء غريب أو مريب.. ملامحها لم تكن غريبة إلى الدرجة التي توحي بأنها مخلوقة غريبة تمامًا، لم تقع أنظار أحد من طاقم المستشفي عليها.. بدت مألوفة بشكل ما، وجميع من رأوها من أطباء وأعضاء أطقم التمريض، أحسوا أنهم شاهدوا تلك الملامح ووقعت أنظارهم على صاحبتها من قبل، لكن أين ومتى.. لم يستطع أحد أن يستخرج تلك المعلومات الثمينة من بين ركام ومخلفات ذاكرته.. إلا أن سلوك المرأة في النهاية لم يعطِ لأحد فرصة

لكي يفكر في أي أمر بشأنها، فلم يروا في حياتهم إنسانًا يُقدم على مثل ذلك التصرف الغريب.. لقد خطت بقدميها إلى داخل حصن المجانين المروع طالبة حجزها لأنها مجنونة!

شعر مدير المستشفي العجوز، الذي ترك وراءه أربعين عامًا من الخبرة الدقيقة في عالم الجنون والمرض العقلي، المعلومة الغريبة التي نمت إليه في صباح كئيب بارد من صباحات شهر نوفمبر الرمادي المحمل بالغروب الدائم والظلام.. تجمدت الدماء في عروق الطبيب مثلما يتجمد الماء في زجاجته شتاء حينما سمع طبيب شاب يخبره بتلك الأعجوبة ويطلب منه الحضور على وجه السرعة ليقوم بتوقيع الكشف على المرأة مقدمة الطلب بنفسه، باعتباره أكثرهم خبرهم ومعرفة..

لم تنتفخ أوداج الطبيب الخبير لذلك الملق والتقريظ، فهو يعرف السبب الحقيقي لإصرارهم على أن يقوم هو، الرئيس، بتلك المهمة الصغيرة.. إن امرأة تطلب أمرًا كهذا لابد إنها واحدة من اثنتين: إما أنها عاقلة تمامًا تعاني حالة إحباط مؤقت، أو انكسار عاطفي، ولعل حبيبها تركها في مرفأ النبيذ تنتظره وحدها نصف ساعة، أو شيء من هذا القبيل،

فتحطم قلبها وتهشمت عواطفها، وقررت أن تأتي لتسوِّد صُبحهم؛ كما سوَّد حبيبها يومها وتفرغ غضبها بطريقة الهستيريا النسائية الشهيرة عليهم.. أو أنها مجنونة تمامًا إلى حد أنها تدرك فعلا أنها مجنونة.. وفي الحالتين فإن تقدير حالتها العقلية مسألة صعبة، وقد يتمخض عنها عواقب قانونية وخيمة، وأطباؤه الأفاضل، بمنتهى البساطة، يريدون أن يُخلوا أيديهم من الأمر ويحملوا التبن الجاف على عاتق رئيسهم وحده كما يفعلوا كل مرة!

تنهد الطبيب وهو يرمق الممارس الشاب بشعره الأشقر وبشرته الباهتة التي تحاكي لون شعره وأظافره الغريب وسأله ضجِرًا:

- "بمَ عرَّفت نفسها؟!"

قلب المساعد يديه مُظهرًا بوضوح أنها لم تعطهم أي اسم، وتركتهم يضربون كل الأرقام في بعضها.. تنهد الطبيب "ميشليه" للمرة الثانية وقرر أن يذهب ليرى تلك المصيبة التي أُبتلي بها على حين غرة في صباح يبدو كئيبا ومشئوما بما يكفي!

*****

حجزوها في غرفة استقبال صغيرة رطبة ومظلمة.. لم تكن الغرفة مهيأة لاستبقاء أحد عاقل بها، لأن كل الأثاث الذي كان فيها لم يزد على مقعد واحد عريض ومرتفع، يستخدم لإجلاس المرضي الهائجين وتقييدهم للسيطرة عليهم، قبل أن يأتي أطباء القسم الداخلي ليتسلموهم ويجروا عليهم الفحوص اللازمة.. وقد كانت المرأة تجلس على هذا المقعد هادئة تمامًا ونظراتها مركزة على ما بين قدميها من فراغ.. عينان لوزيتان صغيرتان، وحاجبان مرتفعان بهما فراغات، وبقع صغيرة خالية من الشعر، أنفها العريض قليلا يحيط به خدان مسطحان تحتلهما بقعتان متقَّدِتان تلمعان بحمرة كحمرة النار المتفجرة، بعد طول كتمان، من جوف بركان، زاويتي فمها المتدليتان تُوحيان بخوف وارتياع لا تستطيع صاحبتهما كتمانه، ملامح وجه لا توحي بالاطمئنان ولا بالسيطرة على النفس، لكن المشكلة أنها لا توحي بالجنون أيضًا.. هذه امرأة عاقلة جدا تظن نفسها مخبولة.. أو الأسوأ أن تكون حقًّا مخلوقة مجنونة تمامًا، لكنها من النوع الذي لا يظهر جنونهم على ملامحهم إلا في مرحلة متأخرة من العلة.. أو لا تظهر مطلقًا وحتى آخر لحظات حياتهم!

تقدم منها الطبيب "ميشليه" بخطوات واثقة وقد داخَلَهُ اطمئنان فوري ويقين أنها ليست من النوع الذي يُخشى خطره، أو يُتوقع إقدامه على حركة عنيفة مفاجئة.. وفعلا رفعت المرأة عينيها من الأرض وثبتت نظرتها الفاحصة العميقة على الطبيب الوقور الذي يتقدم منها في تؤدة.. أغلقت عينيها فجأة وتنهدت بعمق وهي تضغط على جفونها بشدة، وجعلت تلك الحركة إحدى ممرضات الاستقبال تجفل وتتراجع فورًا إلى الخلف وهي تكاد تصرخ هلعًا، لقد ظنت أن المرأة ستُقدم على عمل خطير أو مرعب.. لكنها أطمأنت حينما ظلت المرأة جالسة حيث هي تتنهد، وتتنفس بعمق ولا شيء غير ذلك.. أما الطبيب المُسِنّ فقد لامس كتف المرأة برفق، وقال مظهرا أسنانه المنتظمة الجميلة في ابتسامة تفهم أبوية رائعة:

- "سيدتي.. أسمحي لي بأن أقدم لك شخصي المتواضع.."

عرفها بنفسه وبلقبه العلمي وبوظيفته في المستشفى، ودعاها إلى الإفصاح عن اسمها وسنها ومكان إقامتها.. لكنه رمقته صامتة لائذة بصمت عنيد؛ يبدو أن زحزحتها عنه أمر ليس بالسهولة التي قد يوحي

بها سلوك المرأة الهادئ الرزين.. ابتسم لها الطبيب "ميشليه" ابتسامة أكثر اتساعًا، ثم استحثَّها على أن تجيب ولو على سؤال واحد من أسئلته الثلاث واختار الاسم لأنه أكثر ما يعنيه في تلك المرحلة:

- "سيدتي.. فضلاً.. اسمحي لي بمعرفة اسمك!"

لمدة دقيقة ظلت المرأة صامتة وهي تنظر إلى الطبيب مرة، وإلى من يحيطون به من أطباء وممرضات في حالة تحفز مرة، وأخيرًا بدا أنها مستعدة للتعاون وإعطاء معلومات عن شخصيتها:

".........................."

أخبرتهم باسمها الأول، ثم تلجلجت لثانية قبل أن تعدل عن لفظ أحرف على طرف لسانها، ثم أعطتهم اسمها ينتهي بلقب "مولينيه"، وهو اسم عائلي شائع جدا في باريس وضواحيها.. لا مشكلة في الاسم، لكن المشكلة الحقيقية هو في طلبها الغريب الشاذ.. سألها الدكتور وهو يمد إليها يدًا عجوزًا بارزة العظام، ومغطاة بشعر أبيض خشن وكثيف:

- "سيدة "مولينيه".. كنتِ قد طلبتِ توقيع الفحص الطبي عليك، وطلبتِ حجزك بالمصحة هنا.. ويسعدني خدمتك، لكن بعد أن ترافقيني

إلى حجرة مجهزة يمكنني فيها أن أناقشك وأتعرف دوافع طلبك هذا!"
نظرت المرأة إلى يده الممدودة مترددة لبعض الوقت.. ثم أخيرًا مدت يدها فتناولها الطبيب بلهفة أحسن إخفائها، كان مؤمنًا منذ أن وقعت عيناه على الوجه المستدير الصغير الغريب الموسوم بالهدوء والعقل الكاملين أن تلك الحالة له.. إنه يعرف أن كل طبيب في العالم يمر عليه عشرات ومئات وربما آلاف من المرضى، آلاف الحالات يناظرها ويفحصها ويعالجها، ويصدر قراراته بشأنها، تمر كافة الحالات وتعود وتذهب.. لكن يبقى في حياة كل طبيب حالة واحدة فريدة، حالة استثنائية، تصنع تاريخه وتجلب له المجد، أو تتسبب له في الفضيحة والعار، وتُلقي به في غياهب الفشل أو السجون أحيانا.. وقد شعر الطبيب " ميشليه " فور أن رأى المرأة المستغيثة المطالبة بحجزها واحتجازها كمجنونة خطرة، أنها حالته المنتظرة.. سوف تصنع ذات الوجه المستدير مجده، وتنتزعه من غياهب المستشفي الحكومي الفقير المتواضع القابع في (نانتير)، وتلمع اسمه، ليلمع ويتلألأ في طول فرنسا وعرضها..
كانت تلك أفكار الطبيب المُسِنّ الخاصة وقد احتفظ بها لنفسه.. وقد

كانت فكرته الساذجة تتمثل في أمل واحد أن يكتشف مرض عقلي جديد غير مدروس أو معروف من قبل، لابد أن تلك المرأة الغامضة تعاني داءً عقليًّا غريبًا وليس معروفًا من قبل.. سيكتشف هو الأمر ويقدم عنه بحثًا علميًّا مفصلاً إلى الأكاديمية الوطنية للطب، سيشرح المرض ويصفه، وربما يتمادى حظه في سعده ويكتشف طرقًا لعلاج هذا المرض النادر المكتشف حديثًا والقضاء عليه، وهكذا يحفر اسمه بحروف مُنيرة بجوار أسماء عباقرة الطب والتحليل النفسي، ويتربع على عرش الطب النفسي والعقلي في بلاد الغال القديمة بأسرها.. وربما صار عضوًا في الأكاديمية ونال وسام (اللجيون دونير)، الحلم الذي يداعب مخيلة كل مبدع وبارز ومجتهد في فرنسا، ووُضِع له كرسي بجوار كراسي عظماء الطب وفطاحل العلاج في البلاد.. عبثت الأحلام بعقل الطبيب، الذي من المفترض أنه خبير السيطرة على العقول وعلاجها من أسقامها، لكن يبدو أن كل أحلامه ستنتهي نهاية غير مستحبة في النهاية!

جمعتهما غرفة صغيرة بمفردهما، وفرك الطبيب يديه حماسًا ونشاطًا.. سيخرج من تحقيقه الذكي معها بنتائج مبهرة حتمًا!

xxxxx

بقي بعض الأطباء والممرضين يتحرقون شوقًا ولهفة خارجًا، ليعرفوا قصة المرأة الغريبة التي لم يروا أحدًا يدخل مصحة الأمراض العقلية بقدميه مثلها من قبل، بينما انفرد رئيسهم بطريدته في غرفة الفحص الصغيرة المعتمة.. استمر الأمر نصف ساعة ثم خرج إليهم الطبيب.. كانت ملامح وجهه تعكس مشاعر واضحة جلية.. لقد طار منه كرسي الأكاديمية ولا ريْب!

والحقيقة أن الغرفة الصغيرة لم تشهد الشيء الكثير.. اعتصمت المرأة بصمتها معظم الوقت عدا لحظات قليلة كانت تتخلى فيها عن تحفظها، وتنطق بضع كلمات لا تسمن الطبيب ولا تغني فضوله من جوع.. حاول الطبيب إفراغ عبقريته، واستدراج المرأة لكي تبوح بأشياء تكشف له حقيقة مرضها الغامض النادر، اتبع معها طريقة المحاورة المنطقية المتدرجة، التي يؤمن بجدواها أشد الإيمان، والذي هو من تلاميذها وحوارييِّها المخلصين، لكنه انتهى إلى نتيجة وحقيقة مؤكدة لا ريب فيها: إن تلك المرأة التي جاءت تطلب احتجازها في مستشفى للأمراض العقلية

والنفسية لهي أعقل منه ومن طاقم أطباءه بأكملهم!

ليس بها شيء سوى أنها، فيما يبدو، تهلوس وتثرثر بأشياء غامضة، تحت تأثير، فيما بدا له أنه، جرعة سخية من شراب رخيص مغشوش.. كان أول ما سألها عنه هو اسمها.. رفضت أن تبوح له باسمها كاملا لكنها بدأت تهمهم بحروف متشابهة ومتداخلة، حروف يمكن أن تتجمع لتشكل "جين"، أو "جوان"، أو "جون"، ثم غيرت رأيها وعدلت حروفها إلى ما يبدو أنه "ماري"، لا يدري بالضبط.. لكنها في النهاية بدأت تحكي قصصا مروعة.. قالت له ببساطة أنها تهوي خنق الأطفال وإزهاق أرواحهم!

كانت المرأة تهتز وهي تتكلم، وتدلت زاويتي فمها حتى كادتا تصلان إلى أسفل ذقنها، تحدثت عن صغار ماتوا على يديها، فلما سألها الطبيب عن أسماء هؤلاء الأطفال قالت له وهي تواصل الاهتزاز العصبي إلى الأمام والخلف وكأنها تحولت إلى أرجوحة حية:

- "اسمهم "سيلستين"؟!"

سألها ثانية بحذر:

- "كم طفلا تعتقدين أنك قتلتيهم يا سيدتي؟!"

أجابته فورا هي تحرك رأسها حركة مثل بندول الساعة وترتجف أوصالها:

- "خمسة.. عشرة.. ربما كانوا ستمائة.. لا لا.. إنهم سبعة فيما أتذكر!"

ارتسمت على شفتي الطبيب بسمة ذات مغزى غامض وغير واضح، وهتف مستفهمًا وإن كان الشك يشمله تمامًا:

- "حسنا تقولين إنك قتلتي عددًا كبيرًا من الأطفال.. لنقل خمسة.. اذكري لي أسمائهم من فضلك!"

صرخت فيه وقد لمعت عيناها بنظرة حقد مخيفة:

- "لم أقل إنني قتلتهم.. قلت إنهم ماتوا أمام عيني!"

تنهَّد الطبيب وكتم انفعالاته، كما علمته طبيعة مهنته، وهتف مهدئًا وهو يتعمد ألا يقترب من المريضة التي بدأت تهتاج فيما يبدو:

- "حسنًا حسنًا جدًّا.. لقد كنتِ سيئة الحظ، ورأيت بعض الحوادث المأساوية التي وقعت أمام عينيك.. حوادث ذهب ضحيتها أطفال أبرياء.. لم يتهمك أحد بقتلهم بالطبع، ولا ذنب لك في موتهم.. لكن

ما هي أسماء أولئك الضحايا الأبرياء الذين كنتِ شاهدة على موتهم.. اذكري لي أسماء أولئك الأولاد الطيبين!"

صرخت ثانية وقد بدأت عيناها تحمرّ بالفعل، والبقعتان المتَّقِدَتان على خديها تزداد حمرتهما النارية:

- "لم يكونوا أولادًا طيبين.. كانوا أشرارًا.. كانوا أشرارًا كلهم، وقد استحقوا ما حدث لهم!"

مرة أخرى كاد الطبيب يُحادثها بلهجته الحذرة المهدئة، لكنها راحت تهتز بعنف وهي تردد مغنية بصوت عميق مخيف:

- "كلهم كانوا أشرار..عدا صغيرتي "سيلستين".. كلهم كانوا ينظرون إليَّ بعيون مخيفة لامعة.. عدا صغيرتي "سيلستين".. كلهم كانوا يستحقون الموت.. عدا صغيرتي "سيلستين"!"

بدا أن اسم "سيلستين" هو (القرار) الذي تدور حوله أغنية حياتها الخاصة، فأراد الطبيب أن يستغل ذلك المفتاح، الذي ألقته هي بنفسها إليه دون قصد، في فتح مغاليق عقلها ووُلُوج المناطق المظلمة الموصدة من روحها السوداء المعتمة.. قال بتُؤدة وحذر:

- " نعم.. فعلاً.. كلهم كانوا أشرارًا عدا الصغيرة "سيلستين" بالطبع.. لكن خبريني يا سيدتي من فضلك ماذا كانت أسماء الأولاد الآخرين.. الأشرار؟!"

همهمت المرأة مرة أخري بكلمات غامضة لم يستطع الطبيب أن يفهم منها شيئًا.. ثم انفجرت صارخة بعنف جعل الطبيب ينخلع من مقعده ويسرع مبتعدًا لائذًا بجدار فارغ في أعماق الغرفة بعيدًا عنها:

- "ليسوا أشرارًا.. لم يكونوا أشرارًا.. بل أولاد طيبون.. ملائكة وقد أرسلتُهُم إلى الملائكة بعيدًا عن شقاء العالم.. ملائكة وكلهم اسمهم "سيلستين" كملاكي الصغيرة!"

تلفظت بكلماتها فبدا أنها نفثت عن كرب ضخم دفين في صدرها، ثم بدأت تهدأ رويدًا رويدًا، كانت تلك أول مرة يتمني الطبيب "ميشليه" لو أنهم ما زالوا يستخدمون سلاسل العار، ليتسن له تقييد تلك المرأة المخيفة النظرات، والتي روعته نوباتها القصيرة، رغم أنه كان من أكثر الكارهين لأساليب العلاج والسيطرة الحيوانية تلك، ويعتبرها وصمات سوداء في تاريخ الطب العقلي كله!

لكن لسبب ما فإنه لن يضطر إلى استخدام أية أساليب عنيفة لاستكمال استجواب المرأة المهتزة الصارخة، التي يبدو جليًّا أنها تعاني من خطبٍ ما في عقلها.. فجأة بدأ اللون الناري في عيني المرأة ينطفئ ويتقلص، ثم تلاشى تمامًا واستعادت لونها الأسود الطبيعي، خفتت حمرة البقعتان المتقدتان اللتين ترصعان خديها، وبدا أنها تهدأ.. حقيقة بدأت تهدأ فعلاً وتسترد جزءًا كبيرًا من سيطرتها على نفسها.. لقد انتهت النوبة الجنونية التي دفعتها إلى المجيء هنا بقدميها!

نظر إليها الطبيب متصبرًا حتى ظهرت دلائل رجوع الحياة إلى عينيها، ومن ثم بدأ يغير من لهجته وطريقته معها:

- "سيدتي.. هل أنتِ بخير الآن.. أتَحَسنتِ؟!"

فجأة لمعت عينا المرأة التماعة واحدة خاطفة، ثم تبدد كل الضوء المخيف الصادر عن عينيها.. رفعت يديها ومسحت على وجهها بقوة، مشطت حاجبيها الرفيعين غير المنتظمين براحتي يديها وأصابعها، وأزالت الشعيرات الطويلة التي تساقطت عبر جبهتها على خديها وجانبي وجهها.. بدأت تفيق حقيقة، وبدأ الحذر الطبيعي يعود إليها..

تلفَّتت حولها بنظرة مُضطربة ما لبثت أن أخذت تثبت وتقسي مع مرور اللحظات، فقد أدركت أية ورطة هي عالقة فيها الآن بعد أن جرَّتها قدَمَاها إلى هنا!

واصل الطبيب النظر إليها محاولاً ألا ينبس ببنْت شفة قدر استطاعته، فقد وجد أن تعبيرات وجهها ونظرات عينيها قد تشكل دلائل قوية، أقوى من أية عبارات قد تتفوه بها ردًّا على أسئلته، في تلك اللحظات الفارقة..

أخيرًا استردت المرأة تسعة وتسعين بالمائة من سيطرتها على روحها، وبدأت تسحب قدميها بحذر محاولة أن تجر نفسها خارج المستنقع الذي انزلقت وعلقت فيه.. حدَّق فيها الطبيب ولمعت عيناه الميتتان الخابيتان من خلف نظارات غليظة أعطت نظراته منظرًا ميتًا ذابلاً عجيبًا، وترك لها فرصة كافية لتستجمع نفسها ثم سألها حذرًا:

- "سيدتي.. هل لك في قليل من النبيذ الأبيض؟!"

لم يكن كريمًا راغبًا في ضيافة المرأة التي بدت له معتلة المزاج والعقل حتى آخر حدود الاعتلال، لكنه أراد أن يُغافلها ويدس لها جرعة من دواء منوم يُعطيها نوبة من النوم الهادئ الطويل، ويعطيه هو، أي الطبيب

نفسه، فرصة كافية ليستعلم ويبحث عن معلومات قد تكون قيِّمة وهامة في بحثه عن صحة الادعاءات التي فاهَت بها المرأة في لحظات ضعفها.. لكن المرأة فيما بدا قد استردت كامل وعيها، حتى أنها أدركت هدفه وبدأت تغلق أمامه كل السبل بحنكة راجعة إلى الحيوية الحيوانية والفهم الفطري لمن ولدوا ليُكابدوا مر العيش ومرارته، وليس إلى ذكاء نادر تتمتع به.. همست شاكرة عرّضه الكريم:

- "أشكرك.. أشكرك يا سيدي.."

ثم تطلعت إلى ظهر يديها اللتين ارتسمت عليهما انحناءات وزوايا وتجاعيد غريبة منفرة، ثم قلبت يديها لتنظر مرتاعة إلى راحتيهما، كانت المرأة ممن يؤمنون بقراءة الطالع والكف؛ لذلك فلقد لفت انتباهها للوهلة الأولى الدائرة الصغيرة التي تُحيط بخط قلبها، كانت تفهم تلك الظواهر وتعرف معناها.. الدائرة على القلب، الدائرة اللعينة على خط القلب الحزين، تعني مزيدًا من الحزن يُلازمك ومزيدًا منه ينتظرك! ليست بحاجة إلى ذلك الآن.. فلتخرج من هنا سالمة ولتبقى حية سالمة كفرس من أجل "سيلستين" الصغيرة التي تنتظرها في السماء وعلى

ظهرها جناحي ملاك!

*****

رفعت وجهها وتطلعت إلى الطبيب الذي يرمُقها من الناحية الأخرى بوجهٍ هادئ، امتلأت عيناها بالدموع لكنها ابتلعتها، شربت عينيها دموعهما وتصلب البؤبؤ اللامع.. عاد التحجر يكسو لب قلب المرأة، وتراءت لها صورًا عديدة متداخلة إلى درجة التشويش والكابوسية لكنها لن تغلب على أمرها اليوم..

همست بصوت رققت من نبراته إلى أقصى حد ممكن:

- " شكرا لك يا سيدي.. كنت ثملة فقط!"

اتسعت عينا الطبيب في رعب، وشعر كأن سقف الغرفة سيهوي فوق رأسه، دمدم شيئًا بصوت خفيض لم تستطع المرأة أن تفهم منه حرفًا، لكنه سرعان ما قال بصوت مرتفع واضح:

- "لقد كنت في حالة عصبية سيئة.. نوبة سوداء قاتمة.. وقد تحدثت عن أطفال أشرار.. أطفال قمت بقتلهم مثلما فهمت منك!"

ضج الدم في داخل عروق المرأة، وشعرت بيد عملاقة تضرب رأسها وتدحرجه ككرة، وأحست وكأن حد المقصلة سينزل فوق رأسها ليفصله عن جسدها ويفلق عنقها الآن فورا.. لم تستطع مقاومة الرعب المفاجئ الذي دفعها إلى أن تنظر وراءها بسرعة خاطفة ولهفة، لتتأكد من أن جلاد باريس لا يقف خلفها وحاصدته في يده، تنفست الصعداء حينما وجدت عتمة قديمة مستكينة على الحائط الفارغ خلفها، ولا جلادين ولا أسلحة مشحوذة تنتظر الانقضاض عليها.. لحظها الطبيب بتركيز ثم سألها حذِرًا:

- "أتسمعين أصواتا تناديك؟.. أهناك أصوات بداخل رأسك تتحدث إليك يا سيدة؟.."

كان ما يزال لقبها غامض بالنسبة إليه فسارعت المرأة قائلة بتردد:

- "لا لا أسمع شيئًا.. إني بخير.. إنها الخمر الرديئة.. لقد أفرطت في الشراب فقط!"

بشكٍّ ظاهر في عينيه سألها الطبيب فورًا:

- "ماذا تعملين.. ألديك مهنة.. عمل؟!"

فكرت المرأة للحظة ثم قالت فجأة بثبات واستهانة:

- "كنت أفرط في الشراب لأن مهنتي تتطلب ذلك.. إنني بائعة هوى.. بغيّ!"

شد الطبيب على جفنيه للحظة، ودارت أفكار كثيرة جدًّا في داخل رأسه بسرعة هائلة حتى داهمه دوار خفيف.. وضع يده على جبهته وقال وهو يتأمل ملامح المرأة التي ليس بها ملمح واحد من ملامح الجمال:

- "لم تخبرينا بشيء من هذا في الخارج.. لقد تحدثت عن بيت وزوج وأطفال.. وأطفال آخرين تعتقدين أنك تسببت بموتهم بطريقة ما!"

سحبت المرأة شريطًا ملونًا من داخل صدرها، وأخذت تلف خصلات شعرها المتنافرة بشكل ارتجالي خالٍ من الذوق، وأفتر ثغرها عن ابتسامة كانت قبيحة رغم كل شيء.. نهضت من فوق المقعد الذي أجلسوها فيه وقالت بلا اهتمام:

"ليس هناك شيء من هذا.. إنني مجرد بغيّ.. لكنني دومًا أتصرف تصرفات غريبة حينما أكون ثملة يا سيدي!"

*****

تركها تغادر فلم يكن يملك شيئا يفعله لها.. ليس هناك تشخيص واضح لحالة مرض نفسي أو عقلي يمكنه أن يستفيد منه في كتابة قرار احتجاز لها.. بدت فعلاً كما لو كانت فتاة ليل تافهة أفرطت في الشراب، وأقدمت على أفعال صغيرة جنونية للترفيه عن نفسها.. لكن هذا الرأي لم يكن رأي الطبيب نفسه، بل كان رأي القانون الذي يخضعون له في عملهم، وقد امتعض بعض مساعدي الطبيب من الشبان المتحمسين لقراره بترك المرأة تنصرف، بعد أن فشل في إيجاد أي توصيف طبي مقبول لحالة مرضية تستدعي احتجازًا جبريًّا وعلاجًا، وعبروا عن سخطهم بمختلف الطرق.. لكن الطبيب المسن الخبير، الذي سأم كل تلك الحرب الطويلة التي لا يخرج منها طرف منتصر أبدًا، قال:

- "إنه القانون.. إن المرأة عاقلة تمامًا بالنسبة له.. إن قانون فرنسا الطبي هو "بتلان" × منافق ويجد لكل حالة مخرجًا يجعلها معافاة تمامًا لكي لا تكلف الدولة مصاريف علاجها وإطعامها.. ماذا بوسعي أن أفعل؟!"

وأظهر لهم عجزه الكامل بأن قلب لهم يديه مسلمًا.. انجلى الموقف

عن رحلة قصيرة إلى مصحة للأمراض العقلية في (نانتير)، رحلة لم تكد تخلو من المرح.. لكن المرأة وجدت أنها قد ألهمت المهنة المناسبة التي يجب عليها أن تتجه للعمل بها منذ الآن.. مهنة ليس بها مزيد من الأطفال لكي تخنقهم (الأخرى) وتقتلهم أمام عينيها.. وهي عاجزة عن إنقاذهم من بين يديها القاتلتين!

(١٠)

- "جيرمان.. جيرمان!"

تردد النداء فتركت الفتاة حلقة اللعب، وجرت لتلبي نداء عمتها.. لم تكن العمة تقيم بصفة دائمة برفقتهم في البيت، لكن حضورها كان مكررًا لكي تقوم برعاية الأطفال، بينما يذهب الأبوين في إحدى النزهات القصيرة، أو يضاعفان مناوبات عملهما من أجل زيادة الدخل.. أو يذهبان ليلة الأحد، في أحوال نادرة، إلى حفلة (كوتيليون) خيرية سخيفة تحضرها وترتب لها نسوة عجائز قبيحات ثريات يتظاهرن بحب الخير والشفقة على الكائنات البائسة الفقيرة المسكينة، والرغبة في مساعدتها عن طريق جمع التبرعات والهبات لهم من القادرين بباريس، وهنَّ

ﮱ الحقيقة يقمنها لاصطياد ما تيسر من الشباب الغض الذي يدرس بالجامعة الذي يصلح لدور العشاق للنسوة الكلاسيكيات العتيقات، بعد أن تآكلت طبقة الرجال النبلاء والشبان الملكيين ذوي الوسامة، بعد أن طارت رؤوس الملوك المرفهين، وحلت محلهم أرستقراطية مال وأعمال وضيعة مهددة بالزوال وقصف الرياح ﮱ كل لحظة.. رحم الله أيام "دي ساد" العامرة حينما كانت سياطه تفرقع على ظهور جدات كثيرات منهن، وهن سعيدات راضيات!

تلك الحفلات السخيفة لم تكن العمة تعرف عنها شيئًا، فهي ليست ممن نِلّن أي قدر من الرفاهية ﮱ حياتهن، وبالتالي فإن أقصى أمانيها أن تجد خبزًا لليوم وإفطارًا للغد.. كانت العمة ترعى الأولاد مقابل الطعام فقط الآن ولا تتقاضي نقودًا، فلم تعد بحاجة إلى أية نقود.. إذ ماذا تفعل بها بعد أن هجرها زوجها إلى غير رجعة.. وبعد أن فقدت أولادها الثلاثة بالموت السريع المؤلم!

كانت العمة الثكلى مدار شفقة الجميع ومحبتهم، ولم يكن يُدانيها أحدٌ ﮱ حنانها ورفقها بالأولاد، وشدة رعايتها وخوفها عليهم.. ذهب الأخ

برفقة زوجته مطمئنين إذن، وتركا الأولاد الخمسة، ثلاث بنات وولدين، في رعاية العمة الحبوب اللطيفة.. وكانت "جيرمان" أكبر البنات، وأكبر الأولاد جميعًا، ولها من العمر سبع سنوات، ولما كان الجو صحوًا جميلاً في هذا الوقت من العام.. وضفة السين الغربية التي تقع فيها ضاحية (كليشي) الصغيرة، حيث يوجد منزل الأخ، تُغري باللعب والمرح في تلك الساعة من النهار، فقد انطلق الأولاد الخمسة على سجيَّتهم يلعبون ويجرون خلف بعضهم؛ ويلعبون الغُمِّيضة وكل منهم يحاول أن يجد الآخرين ولا يدعهم يعثرون عليه، أو يعرفون مكانه..

لكن العمة فيما يبدو لديها أخبار هامة؛ فقد وقفت في النافذة تستدعي الأولاد مطالبة إياهم بالدخول إلى المنزل لتناول البسكويت والفطائر.. هلل الأولاد لهذا الاقتراح، خاصة وهم يعشقون فطيرة التفاح المختمر التي تعدها لهم العمة اللطيفة، لكن رغبتهم في مواصلة اللعب كانت أقوى من شهيتهم للطعام، لذلك طلبوا من العمة متوسلين أن تتركهم ليلعبوا دورًا آخر من لعبتهم، ثم وعدوها بأنهم سيدخلون إلى المنزل تنفيذًا لأوامرها فورًا.. لم يظهر أي تعبير على وجه العمة وهي ترْقبهم من النافذة بوجهها الشاحب، وبالياقة السوداء العالية التي تُحيط برقبتها،

والتي تتصل بثوب أسود لم تعد العمة تقريبًا تخلعه إلا لتستبدله بثوب آخر يُحاكيه سوادًا.. كانت الدنيا الخاصة بالعمة قد عدمت الألوان كلها، ولم يعدْ بها سوى الشحوب المخلوط بالسواد، ولم تعد تتخيل أن ثمة ألوان أخرى في هذا العالم الضيق الكريه!

كان الأولاد أسفلها يلعبون ويصخبون.. يدورون حول بعضهم وكل منهم يختفي عن عيون الآخرين وسط الشجيرات القصيرة المتناثرة بالقرب من شاطئ السين، أو يختبئ خلف عربة خشبية متروكة على جانب الطريق، أو يخترع لنفسه مخبئًا غير متوقع يدل على تمتعه بموهبة الإبتكارية والإبداع.. لكن "جيرمان" كانت الأكثر ذكاءً، لقد قررت أن تختفي في مكان لا يتوقعه أحد.. بالضبط في المكان الذي يستحيل أن يتوقع أحد وجودها فيه.. وفي نفس اللحظة التي كانت فيها البنت تختار ملجأها ومخبأها المختار كان وجه العمة يختفي بدوره من النافذة ويغيب عن زجاجها القذر المغبش!

*****

انتهت اللعبة وتجمع الأولاد.. كانوا يلهثون ويلتقطون أنفاسهم بصعوبة من فرط الجري والركض حول عالمهم الصغير، الذي يقتصر على مساحة لا تزيد على نصف كيلومتر من شاطئ النهر الصافي الذي تجثم باريس على ضفتيه كوحش أسطوري متعدد الرؤوس والأذرع، يمد رؤوسه متشمما في كل الأرجاء لكيلا تفوته شاردة أو واردة.. لكن مهلاً فالأولاد ينقصهم واحد.. تنقصهم إحدى البنات.. إنها "جيرمان" لا آثر لها على امتداد الشاطئ المليء بصغار مرحين مثلهم يلعبون لعبتهم الأخيرة، قبل أن تصرخ فيهم الأمهات وتأمرنهم بالدخول لتناول العشاء والخلود إلى النوم..

كانت البنت معهم في آخر لعبة في هذا النهار لكن أين هي الآن.. ولمَ لمْ تأتِ على الأثر حينما أعلن "أوجوست"؛ ابن جارتهم الأرملة الرقيقة السيدة "أجلابيه" الوحيد، ورفيقهم الدائم في اللعب والمشاغبة؛ انتهاء اللعبة، وعودة كل فارس إلى ظهر حصانه الخيالي.. تلفت "أوجوست" حوله بحثا عن "جيرمان"، وأمر الأولاد الصغار بأن يذهبوا للبحث عن أختهم، التي ربما تكون مُختبئة حتى اللحظة، ولم تسمع إشارة انتهاء

اللعب من الحكم الدائم لهم السيد "أوجوست جوريو"!

لكن "جيرمان" لا أثر لها في أي مكان في الخارج.. وهكذا وجد الأولاد الصغار أنفسهم في ورطة.. والأطفال حينما يقعون في ورطة، ويُدركون أنهم كذلك يهرعون دومًا لطلب المساعدة من الكبار..

وهكذا أسرع الأولاد إلى عمتهم الجالسة داخل البيت، ومعهم "أوجوست" الخجل ذو الوجه النحيل الأشقر تمامًا، مُصرحين لها بما حدث.. كانت العمة تجلس في الطابق الأسفل وبيدها ثوب شتويٌّ تخيطه بعناية.. دهشت لخبر اختفاء ابنة أخيها، وألقت ما كانت ترتقه على أقرب مقعد إليها، ثم نهضت لتنادي باسم "جيرمان" وتبحث عنها في كل أنحاء البيت بصوت حزين متقطع النبرات.. وهنا أستوقفها "أوجوست" وسألها متشككا:

- "وكيف تعرفين أنها بداخل المنزل؟ لقد كانت معنا تلعب بالخارج ولم يشاهدها أحدنا تدخل إلى هنا.. فلماذا تبحثين عنها بالداخل وليس بالخارج؟!"

فجأة تجلت نظرة بُغض هائلة في عيني العمة، لدرجة أن الفتى شعر بالرعب للحظة، وصمتت قليلا لتقول بعدها بثبات وقسوة:

- "ما دمتم لم تعثروا عليها في الخارج أيها المتذاكي اللبق فلابد أنها بالداخل؛ وإلا فليس هناك حل إلا أنها ألقت نفسها في أمواج السين!"

شهق شقيق "جيرمين" الصغير "تيوفيل" رعبًا، وقد صدقت أعوامه الأربعة ادعاءات العمة الشريرة القاسية اللفظ.. لكن "أوجوست" همَّ بأن يقول كلامًا لم تعطه عمة الأولاد الفرصة ليقوله، بل انطلقت إلى الدور العلوي تنادي البنت الغائبة باسمها، وبالتدليل الذي يطلقونه عليها دون أن تسمع ردًّا أو إجابة على نداءاتها المتكررة.. مرت خمس دقائق طويلة في طول عمر كامل، والجميع يبحثون عن الطفلة في كل ركنٍ في البيت.. خيَّم صمت مؤلم على البيت الصغير لا تقطعه سوء نداءات متكررة تشبه صدى أصوات تنادي من زمن آخر، ويحمل رجعها ألمًا وخوفًا يفوق كل قدرة مطلقيها على الاحتمال..

فجأة سُمعت صرخة هائلة من المطبخ.. صرخة حملت صوت "أوجوست" الرفيع الشبيه بصوت الفتيات اللائي لم يصلن إلى سن البلوغ بعد.. وخلال لحظة كانت العمة ترفع ذيل ثوبها الأسود الفضفاض وتسرع إلى المطبخ، وخلفها يجري الأولاد مذعورين.. وهناك في المطبخ كان

صبي الجيران ملتصقا بالحائط، وقد ازداد لونه شحوبا على شحوبه الطبيعي، وأطلّ ذعرٌ هائلٌ من عينيه الزرقاوتين الباردتين..

وفي دولاب صغير مخصص لوضع الدلاء والمكانس تحت الحوض الكبير تكدست أدوات التنظيف وزجاجات سوائل تبدو شريرة المظهر.. وبينها تكوَّر جسد صغير على نفسه وأغلق عينيه بقوة، وجفَّ العرق على جبهته خطوطًا مسودة ملوثة بدهون الجلد الطبيعية، وتراب الشارع الذي لعبوا فيه حتى كاد يتسلل حتى ما تحت جلودهم ويختلط بدمائهم.. صرخ بقية الأولاد وتراجعوا، وقد أصابهم من الرعب ما يفوق ما لحق بجارهم الصغير المسكين.. أما العمة فقد ابتلعت ريقها ومسحت عرقًا باردًا نبت على جبهتها فجأة، كان خطًّا رفيعًا يكاد يكون منتظمًا من العرق نبت من عند مقدم شعرها، ثم سال عابرًا الجبين المرتفع، ونزل عبر الحاجب الأيسر، ومرَّ فوق جفن العين وعبره دون أن يفقد نقطة من مادته، ثم تدنى إلى الخد وواصل طريقه عبر الخد المتلاشي المتقلص، حتى اختفى أسفل الذقن الصغير في النهاية.. اختفى خط العرق الوحيد واختفت معه نظرات الرعب الباردة من عيني العمة، وهي تتقدم ببطءٍ ناحية جثة

ابنة أخيها المكومة في دولاب التنظيف.. كانت "جيرمان" هناك مكدسة، كخرقة كبيرة من الصوف حشاها أحدهم دون نظام في دولاب تخزين، وأطرافها متقلصة باردة وجسدها كله بدأ يفقد درجة حرارته رويدًا رويدًا.. كما يليق بجسدٍ ميتٍ فارقته الحياة منذ وقت قصير!



(١١)

حدَّقت فيها العينان بقوة، وظهرت علامات القسوة والغيظ في النظرات الجارحة المسلطة عليها.. كانت وحدها، وحيدة، بلا حماية ولا نصير لها أمام قوة العينان النفاذتان.. قوة العينان اللتان تحملان السوط الرهيب متدلٍّ من نظراتهما الحادة، سوط إنفاذ القانون وتنفيذه.. إنه قاضٍ يحمل القانون في يُمناه وسَوْط العقوبات في يُسراه.. إنه مخيفٌ بالنسبة لجميع الناس.. عدا تلك المرأة المتشحة بالسواد الواقفة أمامه.. كانت في نفس الثوب الذي قبض عليها فيه وهي تخنق الصبي في النُّزُل، وتحاول إزهاق روحه ودماءه النازفة فوق المنديل والتي لا تزال تلوث ثوبها.. ولولا أنهم تدخلوا وأنقذوه من بين يديها في الوقت المناسب، في اللحظة قبل

الأخيرة مباشرة، لكانت تلك اليدين القاتلتين قد أجهزتا على ضحيتهما الحادية عشرة!

لم يفعل إنقاذ "مارسيل بوارو" سوى أنه خفض عدد ضحايا تلك المدعوة "جين ويبر"، تلك المرأة الشاذة المختلة العقل، ونزل بعددهم درجة واحدة.. لكن جرمها لا زال ضخمًا مُروعًا، ومُخيفًا أكثر من أن يُصدق.. يكفي أنها أزهقت بيديها حياة ثلاثة أولاد من لحمها ودمها.. جاءت بهم من رحمها.. ثم زفَّتهم بيديها إلى رحم الأرض التي ربما كانت أكثر حنانًا وشفقة عليهم منها!

لم يصدق القاضي ما سمعه في تلك الدعوى الغريبة.. لقد فصل القاضي "جارنيير" في عشرات ومئات الدعاوي وأصدر حكمه في مئات القضايا.. كان دومًا يُصدر حكمه بيد ثابتة راسخة، وبيقين شديد في استحقاق المحكوم عليه للحكم، وفي عدالة رؤيته ونزاهتها.. إلا إنه للمرة الأولى يشعر بالرعب يضرب قلبه، لقد رأى لصوصًا وقطاع طُرُق من قبل، رأى بغيات وفتيات ليل، وشاهد بعينيه قتلة فجرة لا يشق لهم غبار أزهقوا عشرات الأنفس دون أن يطرف لهم جفن، وبدوره كان يرسلهم

إلى المقصلة دون أن يطرف له جفن، ثقة في أنه ينفذ فيها حكم القانون وأحكام العدالة الباترة التي لا تعرف لينًا ولا واسطة ولا مُهادنة.. لكن تلك المرأة الشاذة قد بلبلت لُبَّه وجعلت مخه يغلي أسفل جمجمته!

إن من العدالة التامة ومن الحق المطلق أن يرسلها إلى الجلاد، يفصل رأسها الشاذ المريض عن جسدها الهزيل الذي لا يبدو أنه كان يملك قياد نفسه تمامًا، فانفلت مقود اليدين لتنطلقا على هواهما وتخنقا وتزهقا أرواح أطفال أبرياء لا ذنب لهم، إلا أن أبائهم قد وثقوا بتلك المدعوة "جين" واستأمنوها على صغارهم.. وليس هذا بذنب لكن هل هي مذنبة بدورها؟!

أحالها للفحص الطبي العاجل.. لكن حتى قبل أن تصل نتيجة هذا الفحص الذي سيقوم به طبيب عينته المحكمة لتأدية تلك المهمة، فقد كان القاضي قد وصل إلى قرار بشأن "جين ويبر".. وثبت يقينه على ما تستحقه تمامًا من عقوبة.. ليس لها بل للعقل المريض الذي يحمله في داخل جمجمتها!

(١٢)

في مصحة الأمراض العقلية في (مارفيل)..

لم يكن هناك أي نوع من الاهتمام بتلك المُقيدة حريتها التي جاءت إلى هنا لتُنفذ حكمًا بالحياة مداها كله في منفى الأمراض العقلية هذا.. لم يكن أحد يُحب الاقتراب منها، ولخطورتها فإن التعليمات المشددة أُعطِيت للجميع بشأن التعامل معها.. لم يعتدْ سوى الأطباء والممرضين على التعامل معها والدُّنُو منها، تُركت وحدها تقريبًا ووُضِعت في غرفة منفصلة، وأُبعِدت عن بقية المرضى.. كانت هناك توصية قضائية بإبعادها عن بقية المرضى نظرا لخطورتها على الجميع.. نفذ الجميع تلك التعليمات بصرامة، لكنها هي نفسها لم تكن بحاجة إلى أحد منهم..

إن أطفالها يُؤنسون وحدتها!

إن أرواحهم الصغيرة تطوف حولها، إنهم يدُورون حولها بأجنحة الملائكة ويُغنون لها فتنام.. كم نامت على أصواتهم، كانت تنام على أصوات غنائهم المرحة.. لكنها دومًا، وبالضد تمامًا، كانت تستيقظ مرعوبة من أصوات صراخهم!

كانت تنهض من رُقَادها وتناديهم بأسمائهم، لم تنسَ اسمًا واحدًا منهم، وتسألهم بحنان:

- "لماذا تصرخون يا أطفالي.. من يُؤذيكم؟!"

وكانوا أبدًا يُجيبونها بنفس الإجابة:

- "إنها هي.. لقد جاءت.. لتخنقنا!"

لم ترَ أبدا من (هي) التي جاءت لتخنق أطفالها، لكنها كانت تسمع أصوات صراخهم فيجن جنونها، وبدورها تصرخ مستغيثة بأطقم التمريض وبالأطباء ليأتوا ويخلصوا الصغار الأحباء من أيدي المرأة المؤذية التي لا يمكنها رؤيتها!

ظلت "جين" أعوامًا طويلة لا تكف عن الصراخ.. ولا عن طلب النجدة

لأطفالها الذين تملأ صرخاتهم أُذُنيها!

*****

لم يكن أحد يُبالي بها أو يهتم بما تفعله.. لقد قست القلوب هنا وتحجرت أغلفتها.. ما قيمة مأساتها وهم يرون المآسي حولهم في كل لحظة، ويدوسون في وحْلها بأرجلهم كل يوم.. غاية ما يهدفون إليه ألا تتوسخ أحذيتهم، وألا يصحون ذات يوم من النوم ليجدوا أنفسهم، الأطباء والممرضات، وقد جنُّوا وفقدوا عقولهم، وصاروا يصرخون ويقذفون اللعاب من أفواههم ويحاولون، دون كلل، الوصول إلى حلمات آذانهم لكي يعضوها ويقضموها.. النجاة من هذا المصير ومن أوضار مخالطة هؤلاء المرضى المختلين هي أول ما يهدف إليه من ابتُلوا بالعمل في تلك المهنة، ووسط هؤلاء المرضى ذوي الطبيعة الخاصة.. لذلك تتحجر قلوب المخالطين للمرضى العقليين أكثر مما تتحجر قلوب أي فئة أخرى من الممارسين لمهنتي الطب والتمريض.. إنهم يعانون خوفًا ووهمًا وخشية لا تنتهي على عقولهم الخاصة، يبدءون بالشك في حواسهم، وتنفصل

أجزاء من جدران غرف نومهم وتتحدث إليهم، وفي خوفهم على أنفسهم يصيرون قُساة، وليس هناك من يخرجون عليه تلك القسوة سوى هؤلاء المرضى المساكين.. يغلفون عقولهم بغطاء واقٍ من القسوة؛ فلا شيء يقي العقل من الانزلاق قدر القسوة وتحجر القلب!

وبالقسوة وتحجر القلب عوملت "جين ويبر" ورفاقها في القسم المخصص للمرضي الجنائيين في تلك المصحة.. إنهم، في نظر العاملين عليهم هنا، جُذام متحرك، والنجاة كل النجاة في الابتعاد عنهم.. لم تجد المرأة من يمد إليها يدًا، بغير جرعات يومية معلومة من أدوية وعلاجات لا فائدة ولا نفع فيها، فأخذت تنزلق أكثر وأكثر.. وامتدت أيادٍ من الجحيم تجذبها إلى القعر المتوهج المظلم!

*****

عشرة أعوام مرت على حبْسِها هناك، خلالها لم تكلمها "سيلستين" الصغيرة كلمة واحدة.. كانوا كلهم يتحدثون إليها ويطلبون منها النجدة حينما تأتي (الأخرى) لتخنقهم وتذبحهم، لكن "سيلستين" لا.. كانت

تبقى مستسلمة، وتُذبح صامتة كتيس صغير مشلول دون أن تبدي أية مقاومة، أو تستغيث بأمها لكي تنقذها من بين يدي (الأخرى الشريرة).. ساكتة صامتة تبقى وتموت بهدوء، مثلما ماتت بهدوء بين يديها ذات يوم بعد أن خنقتها بوشاح صدرها وكتمت أنفاسها ذات بدايات مساء بارد مُظلم مُعتم الصبح والليل وما بينهما.. الآن فقط بدأت "جين ويبر" تدرك حقيقة مهمة.. إنه ليست هناك (أخرى) قتلت هؤلاء الأطفال العشرة، وأن الأولاد لم يكونوا راغبين في الموت.. لقد كانت لديهم حياة طويلة، وسعيدة ربما، ليعيشوها لكنها حرمتهم منها.. هل كانوا أفضل حالاً هنا أم هناك؟!

كم من مرة رفعت "جين" وجهها الشاحب، الذي برزت عظامه وترهَّل جلده نتيجة فقدان الوزن التام الذي تعرضت له، وحدَّقت في سقف الغرفة وقالت صارخة مبررة بحزن:

- "لقد أرسلتكم إلى الجنة.. بعثتكم إلى اللّه ليعطيكم ملابس دافئة وفاكهة في غير موسمها وكوب من اللبن الساخن وخبز طازج بلا عدد!" لكنهم لم يكونوا يتقبلون ما تقوله حينئذٍ؛ بل كانوا يجيبونها في جوقة

جماعية، وكأنهم يتآمرون عليها:

- "لسنا في الجنة.. لم يعطنا الله شيئًا .. إننا نرفرف في جهنم!"

كانت تلك الكلمات تصيب "جين" بالجنون حقًّا، الجنون كما لم تعرفه من قبل.. أَذَهَبَت تضحياتها سُدى وبلا ثمن؟!

لمَ لمْ يتقبل الله أرواح الأطفال الطاهرة التي أرسلتها إليه.. لعلَّه في حاجة لأن تشرح له الأمر بنفسها! لعل الله يُؤجل دخول أرواحهم الخالدة الفردوس حتى تأخذ بأيديهم بنفسها، ويأخذون بيدها.. ويدخلون الفردوس معا!

لعلها لم تحسن تقديم تضحيتها، ولم تغسل الأطفال جيدًا قبل أن تُرسل أرواحهم السعيدة إلى الله.. إن الأمر به خطأ ما.. لكنها تعرف كيف تصححه.. لقد فاتها شيء كان يجب أن تقوم به، وقد تغافلت عنه.. أما الآن فهي مستعدة للقيام به تمامًا وبسعادة كاملة!

*****

ليلة الاثنين التالية لم تسكت صرخات "جين ويبر" لحظة واحدة..

ترددت صرخاتها العالية في كل ركن من القسم الذي تُحتَجز فيه، ثم ما لبثت أن ملأت أرجاء المستشفى بأكمله.. ضج منها أطباؤها فأعطوها جرعة سخية من مهدئ ثقيل.. نامت ساعتين لم تكف خلالهما عن الزوم كقطة.. ثم صحت لتواصل الصراخ.. أغلقوا عليها باب الغرفة جيدًا، تحسُّبا لمحاولتها الإقدام على شيء خطير، وتركوها تصرخ حتى تتقطع حبالها الصوتية أو تنشق حنجرتها فتصمت إلى الأبد كما يتمنون.. أو حتى يستعيد المهدئ مفعوله فتسقط نائمة كميتة حتى الصباح!

وهذا ما حدث فعلا.. ففي الساعة الثالثة فجرًا كفت "جين"، التي جاءت هنا بتهمة قتل عشرة أطفال أبرياء منهم ثلاثة فلذات كبدها، وابنتي أخت زوجها، وابنة أخيها، وابن أختها، والصبي "أوجوست"، وغيرهم.. لم تترك بيتًا دخلته إلا تركت فيه جرحًا غائرًا في قلب أبوين لم يُسيئا إليها بشيء.. لكنها لم تكن تشعر بآلام الآخرين، لأنها لم تعد تشعر بآلامها الخاصة.. وحينما يموت شعور الإنسان يوجه قسوته نحو نفسه أولا.. وهذا ما فعلته "جين".. وهذا ما تدفع ثمنه الآن بعد أن بدأت أخيرًا، وتحت سطوة العلاج، تدرك أنها اقترفته.. وإنه كان جرمًا لا

خدمة لأرواح العالم البائسة!

عندما غادرت عقرب الساعات الساعة الثالثة صباحًا وتقدمت دقيقتين نحو الساعة الرابعة صمت كل صوت يصدر عن غرفة "جين ويبر".. واقتربت ممرضتان خائفتان لتتأكدا أنها صمتت تمامًا ولن تعود للصراخ ثانية.. شعرتا بشيء من السعادة حينما وقفتا خارج بابها وهما تسمعان أصوات تنفسهما الهادئ تتردد بوضوح.. كان معنى هذا أن الأمن قد استتب وأن أصوات الصراخ المريع لن تعود تزعج نوبة عملهما الليلة، وأن بوسعها أن يخلدا إلى الراحة ما بقي منها!

*****

انسحبت الممرضتان بهدوء تاركتين المريضة تنعم بنوبة هدوء نادرًا ما تُجربها، ويُجربونها معها.. غير داريتين أن مريضتهما المزعجة لن تعكر صفو ليلهما مرة ثانية أبدًا.. وأنها خلف الباب.. مُعلقة من مشجب ثياب حديدي قديم منسي في الغرفة الحقيرة القذرة.. معلقة.. متدلية.. مشنوقة بملاءات سريرها وغطاءه المجدولة على هيئة حبال غليظة قوية!

ماتت "جين" تاركة خلفها ثلاثة وأربعين شتاء.. يحسب البشر أعمارهم بالربيع، لكن "جين ويبر" لم يكن بوسعها ذلك.. فلم تعرف "جين" في حياتها سوى الشتاء!

*****

من أعلي نقطة في باريس، في العالم، هوت "جين ويبر" إلى أسفل.. كانت تقرقر ضاحكة كطفل وهي تسقط، لم تكن خائفة أو قلقة، إنها تؤمن أنها ستجد أيادي حانية ستتلقفها في الحفرة.. سوف تنفتح تحتها حفرة في الجنة وتمتد أيادي أحبائها لتلتقطها وتأخذها إليها.. جميع أحبابها ينتظرونها هناك، وأولهم صغيرتها "سلستين".. واصلت سقوطها وهي تواصل الضحك بأعلى صوتها، أرتج العالم وتزلزلت أساساته من قوة ضحكاتها ومن شدتها.. لكن ضحكاتها ما لبثت أن توقفت فجأة.. فلقد انفتحت الثغرة تحتها بالفعل.. لكن لا يمكن أن تكون

تلك ثغرة تقود إلى الجنة!

إنها حفرة يستقر في قلبها دخانٌ مهولٌ أحمر وتبرز منها أيادٍ مجللة

بالمخالب.. أيادٍ مكشوفة العظام وقبيحة.. لم يقولوا لها إن هناك قبحًا في الجنة.. لقد خدعوها ثانية!

أرادت أن تصرخ وأن تردد المناشدة اليائسة.. أن تستغيث مرددة:

(أيها الصليب سلامًا يا أملنا الوحيد)..

لكن يبدو أن الأمل الوحيد هذا مضْنُون به على "جين ويبر" أيضًا.. إذ أن حلقها تجمد وعجزت عن أن تهدر صارخة طالبة النجاة.. كما حدث في المقبرة العتيقة، لكن القبور تفتحت لها هذه المرة..

برزت لها وجوه متصلبة محترقة بشعة ومدت أيديها لتلتقطها.. رأتهم كلهم متجمعين هناك

حيث لا بُشرى طيبة تنتظرها.. "جورجيت" و" سوزان".. تلاحمت أيديهما الصغيرة معا لكنها كانتا بشعتين قبيحتين مشوهتين.. الصبي الملص الذي أوعزت إلى نسيبتها "جورجيت" على إسقاطه وإجهاضه كان هناك.. ابنة أخيها البريئة "جيرمان" كانت تصرخ بأعلى صوتها، وقد نبت لها نابان فظيعان يقطران دما.. تقاطر الأولاد الآخرين بثياب بيضاء ممزقة قذرة ومرُّوا أمام عينيها وهم يمدون أيدي تبرز منها

أظافر ومخالب بشعة بالغة الطول ويحاولون أن ينشبوها في وجهها وفي جسدها.. ثم ظهر أطفالها أخيرًا.. "إميل" و"مارسل" كانا معا، جنبًا إلى جنب، بوجهين هزيلين وجسدين ضعيفين، إن الجوع يقتلهما.. لقد أرسلتهما بعيدًا عن الفاقة والجوع؛ لكنها لم تفعل إلا أنها اختارت لهما المزيد من العذاب والجوع.. وأخيرا كانت "سلستين" هناك..

"سلستين".. سلستين.. حبَّة قلبها جاءت أخيرًا لتأخذها..

لكن البنت تُدير لها ظهرها .. البنت تتركها وتذهب.. البنت، التي لأجلها فعلت كل هذا، تتخلى عنها أيضًا مثلما تخلى عنها الجميع.. ورغم الأخطار المحدقة بها لم تهتم سوى بظهر "سلستين" الذي يُواجهها، وهي تخطو مبتعدة عنها، بدلاً من وجهها الصغير البريء التي تنتظر أن يُقبل، بحب، بشوق، بتفهم ولهفة، عليها..

وحدها "سلستين" كان لها جناحيّ ملاك.. وقد فردتهما وبدأت تُحلق مبتعدة..

صرخت "جين" صرختها الأخيرة:

" لا.. لا.. ابقي معي.. بقي معي!"

لم يسمع صراخها أحد هذه المرة.. ومن الحفرة التي هوت فيها تصاعد دخان أسود كثيف محمل بالعذاب.. ثم انغلق فم الحفرة.. تلاشت من الوجود..

وغلف الظلام والصمت كل شيء!

تمت

اسأل عن العدد القادم

العنكبوتة السوداء

هامش المعلومات في الرواية

* "بتلان" هو بطل مهزلة شعبية فرنسية شهيرة نشرت بين عامي ١٤٦٠ و ١٤٨٠م ، مجهولة المؤلف ، وهو يعتبر مثالا للمكر والخديعة.

* لقب عُرفت به الملكة " فيكتوريا " (١٨٣٧ - ١٩٠١) بين أوساط الملكية الأوربية ، وذلك لأنها ، وعن طريق مصاهراتها الملكية المتعددة ، نقلت مرض (الناعور) أو النزف الدموي المزمن إلي معظم الأسر المالكة في أوروبا .



للاطلاع على أحدث إصدارات مؤسسة إبداع

يرجى زيارة الموقع الإلكتروني

www.prints.ibda3-tp.com